الآباء الأولون

عن

الفيلوكاليا

الجزء الأول[١]

Early Fathers From
PHILOKALIA[٢]

طبعة ثانية

١٩٩٣

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

اسم الكتاب: الفيلوكاليا.
المعرب : القمص تادرس يعقوب ملطي.
الطبعة : الثانية ١٩٩٣.

---

[١] قمت بتقسيمه إلى جزئين حتى يسهل قراءته.

[٢] يكمل هذا الكتاب آخر هو:

Writings From PHILOKALIA
On the Prayer of the Heart.

المطبعة : الأنبا رويس بالقاهرة.
الناشر : كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتنج،
وكنيسة القديسين مار مرقس والبابا بطرس بسيدي بشر بالإسكندرية.

المحتويات

الفيلوكاليا أو الدوبروتوليبي	٩
محتويات الفيلوكاليا	١٥
ملاحظات هامة	١٦
القديس أنطونيوس الكبير	١٧
أهمية كتابات أنبا أنطونيوس	١٨
١- ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة	٢١
٢- توجيهات عن الحياة في المسيح	
مأخوذة عن رسائله العشرين	٥١
الأب مرقس الناسك	٧١
✞ الأب مرقس الناسك	٧٢
١. رسالة إلى الراهب نيقولاس	٧٣
٢. وجيهات منتخبة عن أحاديثه الأخرى	٧٧
٣. مقالتان عن الناموس الروحي	٩٩
٤. ١٦٦ نصًا إلى أولئك الذين يظنون أنهم	
بأعمالهم (الذاتية) يتبررون	١١١
الأب أوغريس الراهب	١٢٥
توجيهات في الجهاد الروحي	١٣٣
١. توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة	١٣٣
٢. مقال عن الحياة العاملة	١٤٦
٣. نصوص مختلفة	١٥٠
٤. إلى أناتوليس عن الأفكار الثمانية	١٥٢
٥. تأملات في الأفكار الثمانية	١٥٦
٦. تعليمات إلى رهبان في المجمع	١٦٠
٧. عن الأفكار الشريرة الأخرى	١٦٣
الأب دوروثيؤس	١٧٥
✞ موجز لحياته	١٧٦
توجيهات بخصوص التداريب الروحية	١٧٧

الفيلوكاليا
أو
الدوبروتوليبي

فكرة عن الفيلوكاليا

"فيلوكاليا" كلمة يونانية تعني "محبة الصلاح أو محبة الخير أو محبة الجمال". وهي عبارة عن مجموعة من كتابات آباء الكنيسة الأولى، الذين بلغوا درجات عالية في الروحيات. قام بجمعها مكاريوس الكورنثي (١٧٣١– ١٨٠٥م) ونيقوديموس الذي من الجبل المقدس (١٧٤٨(؟) – ١٨٠٩). وطبعت في فينيس **Venice** سنة ١٧٨٢م.

تُرجمت "الفيلوكاليا" إلى اللغة السلافية تحت اسم "دوبروتوليبي"، وهي تعني نفس المفهوم لكلمة "فيلوكاليا"؛ قام بترجمتها **Paissy Velichkovsky** سنة ١٧٩٤م. وهو راهب زار جبل أثوس وعمل بعد ذلك في مورافيا. هذه الترجمة لها أهميتها الكبرى إذ أحيت الرهبنة في روسيا، وأعادت ممارسة تدريب صلاة يسوع، وذلك ابتداء من القرن التاسع عشر.

كذلك قام الأسقف ثيوفان الناسك سنة ١٨٩٤ بترجمتها إلى الروسية بعد وضع بعض إضافات وحذف البعض. وعن هذه النسخة ترجمها إلى الإنجليزية **H.Palmer & E. Kadloubovsky** بعد استبعاد بعض المقالات المنتشرة بالإنجليزية وإضافات قليلة.

أهمية الفيلوكاليا

جاء في مقدمة الترجمة الإنجليزية عن أهمية كتابات الكنيسة الأولى فيما يلي:

"إنه ككل المحاولات التي يبذلها الإنسان لبلوغ مستوى روحي معين، يلزمه أن يكون حريصًا ومتيقظًا ودائم الانتباه في ممارسة التداريب المعينة، حتى يتجنب الأخطار الحقيقية غير المتوقعة الناجمة من محاولته للقيام بأي عمل بذاته (دون الاسترشاد بحكمة المختبرين).

هذا بجانب النقص في (وجود) القادة الروحيين في أيامنا هذه، يقتضينا الدراسة الدائمة لهذه الكتابات المقدسة، حتى نقتفي آثار هذا الطريق العجيب، الذي هو فن الفنون وعلم العلوم، دون أن يصيبنا ضرر".

هذا القليل مما سجلته لنا الترجمة الإنجليزية يكشف عن شهادة بعض الغربيين عن حاجتهم إلى كتابات الكنيسة الأولى، وشغفهم نحو اقتفاء آثار العصور الأولى، وبالأخص بالنسبة للكنيسة الشرقية، فكم بالأكثر يلزمنا نحن الشرقيون أن نعكف على دراسة كتابات آبائنا، والسلوك على منوالهم والتمسك بروح الحق الذي عمل فيهم.

كنت أود أن أسجل ترجمة كاملة لكل مقدمات الفيلوكاليا، لكن حرصنا على عدم التكرار يجعلنا نكتفي ببعض المقتطفات مع قليل من التصرف، وذلك لأيضًاح أهمية كتابات الكنيسة الأولى، وكيفية الاستفادة منها.

لقد جاء في مقدمة الترجمة الروسية(٢) أن "الفيلوكاليا" أو "الدبروتوليبي" تعني محبة الصلاح أو الخير أو الجمال... وهي تحتوي ترجمة للحياة السرية (الداخلية) في ربنا يسوع المسيح.

والحياة السرية في ربنا يسوع المسيح، هي بحق الحياة المسيحية. تبدأ هذه الحياة (في الإنسان) وتنمو فيه وترتفع إلى الكمال – كل حسب قامته – بواسطة إرادة الله الآب الصالح، بعمل الروح القدس الحال في الإنسان المسيحي، وتحت إرشاد ربنا يسوع نفسه الذي وعد أن يسكن فينا إلى كل الأجيال.

تدعو النعمة الإلهية الجميع إلى مثل هذه الحياة... لكن ليس الكل يشتركون فيها، بل والذين يشتركون فيها ليس لهم نفس القامة، إنما يدخل المختارون ويتعمقون في الحياة السرية في المسيح ويتسلقون (جبالها) شيئًا فشيئًا.

هذه الحياة التي في المسيح لا تقل مظاهرها تنوعًا عن مظاهر الحياة العادية.. بل وأكثر منها دقة وصعوبة إذ تختص بأحوال الفكر والقلب... إنها تتحدث عن موقف النفس البشرية تجاه التجارب والآلام، ومواقفها إزاء ملذات العالم ومباهجه، وموقفها من شهوات الجسد وحيل الشيطان وخداعه؛ تتحدث عن صراعٍ ونصرة، سقوطٍ وقيامٍ... أمور داخلية لا يتلمسها ولا يدركها إلا المختبرون... لهذا قليلون من يقدرون أن يتكلموا عن هذه الحياة، التي هي بحق فن الفنون وعلم وعلوم. قليلون جدًا من تكلم عن خبرة حقيقية وتلامس حقيقي...

فكما أن الرحّالة يسجلون كل ما يرون في رحلاتهم إنه يستحق التسجيل، هكذا أيضًا المختارون من قبل الله، الذين تجَّولوا في اتجاهات متعددة وسلكوا في كل ممرات الحياة الروحية، يسجلون ملاحظاتهم التي يفطنون إليها أثناء رحلاتهم الشاقة المملوءة اختبارات...

هناك فارق بين من يكتب عن بلد غريب مقتطفًا كلماته من سجلات الآخرين، وبين من يسلك الطريق ويسجل ما يراه ويتلمسه. **فبقدر ما يسلك الإنسان في "المدينة الروحية" يكتشف ملاحظات أعمق وأقيم**. لهذا لا يسجل كل الداخلين في "المدينة الروحية" اختبارات واحدة بل تزداد ملاحظاتهم عمقًا كلما توغلوا في شوارعها...

هذه الملاحظات تهم كل مسيحي، فإنها وإن فاقته من جهة قامته الروحية، إلا أنها تكشف له إنه لم يصل بعد إلى الكمال، فتعطيه شوقًا لحياة أثمن.

وأما الذين بلغوا قامة روحية معينة فإن هذه الملاحظات تعينهم في بلوغ حالٍ أفضل وكمالٍ أعظم...

تقدم لنا الفيلوكاليا التعاليم ودقائق الحياة المقدسة السامية، تلك المقالات الكاملة أو الكلمات المختصرة التي تخص الحياة الداخلية...

هكذا يسجل لنا الآباء بكتاباتهم واختباراتهم كيفية البلوغ إلى درجات روحية عالية، وممارساتهم للتداريب الروحية الحيَّة الفعَّالة، التي ليس فيها جمود قاتل مميت تدفع بالإنسان إلى البر الذاتي أو السقوط في الكبرياء، وفي نفس الوقت ليس فيها الاستهتار والتراخي الذي يحرمنا من أن تعمل النعمة فينا.

إنهم يقدمون لنا خبرة عصور كانت فيها المسيحية في العالم كله، بروح وفكر واحد تسلك بروح الرب وعلى منوال الرسل والتلاميذ... بركة صلواتهم تكون معنا آمين.

هل يمكننا أن نصل إلى مستواهم الروحي؟

لقد بلغ الآباء القديسون أمثال أنطونيوس الكبير وباخوميوس ومرقس الناسك وغيرهم قامات روحية عالية، تبدو لكثيرين منا أنها درجات مستحيلة. وكأن طبيعة هؤلاء تختلف عن طبيعتنا أو مسيحهم غير مسيحنا!!!

لقد كشف لنا الآباء في كتاباتهم، أننا جميعًا طبيعة بشرية واحدة، والكل معرض لنفس التجارب والسقطات والشهوات، وإن اختلف شكل السقوط أو مظهره... هذا والإيمان هو هو مُقدّم للجميع، والإمكانية الإلهية لا تتغير... إنها قادرة أن تخلق من أشر المجرمين قديسين. إنما الفارق الحقيقي ينصب في أمرين:

الأمر الأول: هو **معرفة إمكانية النعمة الإلهية القوية القادرة أن تعمل،** فالقديس هو إنسان مثلي ومثلك، له ضعفاتي وضعفاتك... إنما أدرك القوة الإلهية وتلامس معها، وتلاقى مع الحب الإلهي وبركات الصليب والفداء... وعرف إنه هو ما هو ولكن نعمة الله العاملة فيه... لهذا لا عجب إن كان الرسول بولس لا يكف عن أن يطلب من أجل شعبه لكي تستنير عيونهم وقلوبهم فيدركوا تلك القوة الفائقة العظيمة التي تعمل في قلوب المؤمنين.

والأمر الثاني: أن معرفتهم لم تقف عند مجرد المعرفة العقلية البحتة، أو الإيمان النظري الذهني، لكن **آمنوا إيمانًا حيًّا عاملاً.** فالمعرفة تتطلب منّا أيضًا الجهاد والاغتصاب: "ملكوت السموات يغتصب والغاصبون يختطفونه". كان لابد لهم أن يعملوا أيضًا ويتعبوا، وكما يقول الرسول بولس عن نفسه "لكن بنعمة الله أنا ما أنا **ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلة بل تعبت...** ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١كو١٥:١٠).

لم يكف الرسول بولس عن أن يوصي تلاميذه عن حياة الجهاد والعمل إلى النفس الأخير، لأن نعمة الله لا تعمل في المتراخين والمستهترين.

وإني أعلم إنه ليس بخافٍ عليك أن ما سجله هؤلاء الآباء هو ثمرة عمل النعمة الإلهية مع جهاد طال لسنوات كثيرة... لهذا يلزمني وإياك ألا نرتئي فوق ما ينبغي... بل نعرف قامتنا الروحية ونجاهد طالبين عمل النعمة، **غير منفذين كل ما جاء في هذا الكتاب إلا تحت إرشاد أب الاعتراف.** لأن الإرشادات الواردة في هذا الكتاب تخص مستويات روحية مختلفة، وإن كان لم يشر كل نص إلى المستوى الروحي الخاص به.

وقد حذرنا الأبوان أوغريس ودوروثيؤس وغيرهما، كما سنرى، ألا نقدُم نحو عمل أو تدريب غير الذي يليق بنا ويتناسب معنا...

وأخيرًا بقي لنا أن نجيب على هذا السؤال:

هل تصلح كتابات القرون الأولى لنسلك بها اليوم؟

والإجابة على هذا التساؤل هي أن الإنسان لا يتغير من جهة طبيعته أو مشاعره أو نفسيته، وإن تغيرت الظروف المحيطة به ووسائل الحياة وملتزماتها... فلازال الإنسان يحاربه الكبرياء الذي حارب آدم، وتحاربه الشهوة التي خضع لها داود، ولازال الحقد والبغضة والإدانة الخ. كل هذه الأمور باقية بلا تغيير... اللهم إلاّ التقاء النفس مع ربنا يسوع والسلوك كما سلك الآباء الأولين من جهة علاقتهم بالله.

هذا وإن الله لا يتغير لذلك فإن علاقة الإنسان بالله باقية لا تتغير، وإن تغيرت الظروف والاتجاهات والعادات... لهذا فإن هذه الكتابات لها قيمتها الكبرى العملية خلال العصور.

غير إنني أريد أن أؤكد مرة أخرى أن هذه المقالات بعضها نسكيات، سُجلت لآباء رهبان التقوا بربنا يسوع وأدركوا أن جهاد الإنسان بدون النعمة باطل... وإن التداريب الواردة لا تعني مجرد تنفيذ شكلي لها، أو جهاد ذاتي... إنما جهاد ومثابرة بقوة النعمة العاملة فينا...وقد أكدت بعض النصوص هذا. لذلك **يلزم أن تفهم كل نص على ضوء المقال كله، هذا مع مراعاة ضرورة الاسترشاد بأب اعترافك.**

هذا وإني لم أضع مقدمات ولا تعليقات راجيًا أن تقرأ كل نص بهدوء وترو... حيث أن هذا الكتاب لا يسجل مجرد عظات منمقة بل اختبارات روحية عميقة لآباء عظماء في الإيمان.

الرب يحول هذا العمل لمجد اسمه القدوس ولبركة نفوس كثيرة.

الإسكندرية في ١٩٦٦م

(الطبعة الأولى)

محتويات الفيلوكاليا

من جهة الكتاب وأسماء المقالات، فبنعمة الرب سنقدم في نهاية الترجمة بيانًا وافيًا عن الكتابات الواردة في:

النسخة اليونانية،

النسخة السلافية،

النسخة الروسية،

النسخة الإنجليزية،

والنسخة العربية.

أما محور الحديث في الفيلوكاليا فيتركز في:

١. علاقة الله بخليقته.

٢. علاقة الإنسان بأخيه.

٣. مفاهيم الإنسان لحقيقة طبيعته،

٤. عمل النعمة الإلهية وحياة الجهاد،

٥. الاتحاد بالله،

٦. نعمة البنوة،

٧. أمور غامضة في الإنسان مثل نفسيته الطبيعية والشاذة، وإمكانياته الجبارة وطرق التنقية والمعرفة والكمال.

ملاحظات هامة

١. الأرقام الواردة في هذا الكتاب مأخوذة عن النسخة الدوبروتوليبية وبالتالي عن النسخة الإنجليزية أيضًا، مع استثناء واحد في إحدى اقتباسات للأب أوغريس الراهب وُمشار إليه في موضعه.

٢. سير الآباء في هذا الكتاب مأخوذة عن النسخة الإنجليزية وبالتالي عن الدوبروتوليبية.

٣. كلمة "عقل أو ذهن mind" تعني إنسانًا روحيًا يهتم بحياته الروحية، يفكر في الله والحياة الأخرى، ولا يشبع شهوات جسده أو يخضع لها.

٤. كلمة "لاهوتي Theologian" لا ترد في كتابات الآباء بمعنى [الإنسان ذو المعرفة النظرية المجردة نحو الله]، بل ذاك الذي له هبة من الروح القدس، أو عطية للحديث عن الله بنظرة عميقة وكلمات قوية ذات سلطان روحي تجذب النفوس والقلوب. هذه الموهبة تعطى لمن نالوا "الحكمة الإلهية" وسَموا في التأمل نحو الله، وانشغلت قلوبهم به.

وقد أعطى لقب "الناطق بالإلهيات" لكل من القديس يوحنا الإنجيلي والقديس غريغوريوس النزينزي.

✞ ✞ ✞

العناوين الجانبية من وضع المعرب.

القديس
أنبا أنطونيوس الكبير

أهمية كتابات أنبا أنطونيوس[١]

اختلف الدارسون حول ثقافة القديس أنبا أنطونيوس (٢٥١-٣٥٦م)، فالبعض يرى أنه أميّ لا يعرف القراءة أو الكتابة، والآخرون يرون أنه على مستوى رفيع من الثقافة، وأن القديس أثناسيوس الرسولي لم يتتلمذ على يديه في الحياة النسكية فحسب، بل وفي الفكر اللاهوتي.

على أي الأحوال، دعاه البابا أثناسيوس "**طبيبًا وهبه الله لمصر**". جاءت إليه وفود لا تنقطع من كل أنحاء الدولة الإمبراطورية، من كهنة ونساك وشعب، البعض يطلبون **مشورته** في أمور معينة، والآخرون يرغبون في **مجرد الاقتراب إليه** ليتعلموا من صمته، إذ يجدون في شخصه رجاءً جديدًا في حياتهم[٢]. يُحسب **أبًا للعائلة الرهبانية** في العالم كله، غيّر تاريخ الكنيسة، إذ سحب قلوب كهنة كثيرين وجدوا أبواب القصر الإمبراطوري مفتوحًا أمامهم، ومظاهر الترف بين أياديهم، ليستعذبوا حياة البرية وينشغلوا بالمجد الداخلي الخفي.

سيرته[٣]

إذ سمع الشاب أنطونيوس كلمات السيد المسيح في الكنيسة: "إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء وتعال اتبعني" خرج ليتمم الوصية حرفيًا، ممارسًا الحياة النسكية على ضفاف النيل.

بعد ١٥ عامًا انطلق إلى البرية الداخلية وسكن في مغارة على جبل القلزم، شمال غربى البحر الأحمر، حيث قضى ٢٠ عامًا في حياة الوحدة... لكن سرعان ما التف حوله الكثيرون يمارسون حياة الوحدة متمثلين به، ومسترشدين بنصائحه.

تنيح سنة ٣٥٦م، وقد بلغ ١٠٥ عامًا، وكان في كامل صحته.

حكمته

دعاه القديس أثناسيوس "**رجل الحكمة الإلهية**" ورجل النعمة والتهذيب[٤].

إذ كان البعض يتعجب لحكمته بالرغم من عدم معرفته القراءة والكتابة. كان يقول :"حسنًا، ماذا تقولون؟ أيهما جاء أولاً: العقل أم حروف الكتابة؟ وأيهما علة الآخر العقل علة الحرف؟ أم الحرف علة العقل؟ فإذ يجيبون أن العقل هو أولاً، وأنه مصدر الحروف، يقول: "من كان له عقل سليم فلا يحتاج إلى حروف[٥]!

جاء في "تاريخ الكنيسة" لسقراط أن الفلاسفة سألوا القديس أنطونيوس عن حياته كيف يمارسها دون تعزية الكتب، فأجابهم :"**كتابي أيها الفلاسفة هو الطبيعة، ففيها أقرأ لغة الله**[٦]" .

يقول البابا أثناسيوس:" اقتنى أنطونيوس الشهرة لا من كتابات، ولا من حكمة عالمية، ولا من أي فن، إنما من خدمته لله[٧]".

---

[١] من وضع المعرب.

[٢] *Derwas J. Chitty: The Letters of Saint Antony the Great, Oxford, ١٩٧٥, p. v.*

[٣] المؤلف: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، ١٩٨٥، حرف ا، ص ٥٢٧ الخ.

[٤] *Vita Antonii*

[٥] *J. Quasten: Patrology, vol. ٥, p. ١٤٩.*

[٦] *Socrates: H.E. ٤:٢٣.*

[٧] *Vita Antonii* ٩٣.

أهمية كتاباته

إن كانت الكتابات المنسوبة إليه بأكملها له، أو جزء منها لأحد تلاميذه، فإنها بلاشك تكشف عن روح الحركة الرهبانية الكنسية في بدء انطلاقها.

إن كانت بعض الكتابات الرهبانية خاصة ما ورد في **Apophthegmata Patrum** قد اهتمت بالجانب النسكي، خاصة الذي مارسه الآباء في أواخر جهادهم، متجاهلين الحديث عن الجوانب الأخرى بكونها أمورًا روحية طبيعية لا تحتاج إلى تسجيل... فإن كتابات القديس أنبا أنطونيوس أوضحت الفكر الرهبانى كفكر إنجيلي حيّ، يقوم على عمل الروح القدس الناري في تقديس الإنسان بكليته: جسدًا وروحًا، متى كان جادًا في جهاده الروحي، متجاوبًا مع عمل النعمة الإلهية المجانية.

١. يسجل لنا مؤسس نظام الوحدة نظرته الرهبانية الحية. إنها ليست وحدة انعزال عن البشرية، بل اتحاد مع الله محب البشر... يحمل الراهب الحب لكل البشرية في وحدته وسكونه[١].

فمن كلماته:

[حياتنا وموتنا هما مع قريبنا، فإن ربحنا قريبنا نربح الله، وإن أعثرنا قريبنا نخطئ ضد المسيح. جميعنا أعضاء بعضنا لبعض، جسد المسيح... إن تألم عضو تتحرك معه وتتألم كل الأعضاء. لذلك يلزمنا أن نحب بعضنا الآخر. فمن يحب قريبه يحب الله، ومن يحب الله يحب نفسه.]

٢. يقدم لنا كمؤسس لنظام الوحدة نظرته المقدسة للجسد، مع تحذيرنا من شهواته.

[عندما يكون الجسد مبتورًا تشاركه النفس آلامه، وعندما يكون قويًا وسليمًا تفرح معه النفس (إذ تستطيع النفس أن تصلي وتتعبد لله...)]

[أحزن البعض أجسادهم بالنسك، وبسبب عدم التمييز هم بعيدون عن الله.]

٣. المعرفة في فكره ليست أمرًا عقلانيًا بحتًا، لكنها خبرة معاشة بروح الله العامل فينا... هذا ما كرره كثيرًا في رسائله لأبنائه الرهبان.

وإني أتركك مع ما ورد في الفيلوكاليا من كتابات القديس لكي تتلمس مفاهيمه الروحية واللاهوتية العميقة بأسلوب بسيط عذب.

---

[١] راجع: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، ص٧-١٨.

القديس أنطونيوس الكبير[1]

(١) ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة

١

من هم العقلاء؟

يُدعى الناس عادة "عقلاء"، مع سوء استخدام كلمة "عقلاء". فالعقلاء ليسوا هم الذين يدرسون أقوال الآباء الحكماء الأولين وكتاباتهم، بل من كانت نفوسهم عاقلة، تقدر أن تميز بين ما هو خير وما هو شر. فيجتنبون ما هو شر ومُضِر للنفس، ويحرصون بحكمة على ما هو خير ونافع للنفس ويمارسونه بشكر عظيم لله. هؤلاء وحدهم بحق الذين يجب أن ندعوهم "عقلاء".

٢

سمات الحكيم وعمله

للإنسان العاقل حقًا اهتمام واحد، وهو أن يطيع الله القدير من كل القلب وأن يرضيه.

وهو يُعلّم شيئًا واحدًا، واحدًا فقط، وهو كيف يصنع قدر استطاعته ما يوافق الله، شاكرًا إياه على عنايته المتحننة التي تعمل في كل ما يحدث في حياته.

وكما إنه لا يليق بنا إلا أن نشكر الأطباء لشفائهم أجسادنا، حتى إن قدموا لنا أدوية مُرّة غير مقبولة، هكذا لا يليق بنا أن نجهل أن كل الأشياء تعمل معًا للخير، وذلك بفضل العناية الإلهية، فننكر معروف الله في الأمور التي تبدو لنا أنها مؤلمة.

٣

ويهبنا الله ضبط الفكر والوداعة والعفة والثبات والصبر وما يشبه هذا من الفضائل العظيمة، كأسلحة لمقاومة ومواجهة المصائب التي تصادفنا ولمساعدتنا إن أحدقت بنا.

فإن درّبنا أنفسنا على استخدام هذه القوى، محتفظين بها على الدوام على أهبة الاستعداد، فإنه لا يصيبنا أمر صعب أو خطير أو مهلك أو غير محتمل، إذ نستطيع بالفضائل التي نملكها أن نغلب كل شيء.

لكن ذوي النفوس غير العاقلة، لا يفكرون قط هكذا، لأنهم لا يؤمنون بأن كل ما يحدث هو لخيرنا، إذ تتلألأ الفضائل فينا، ويكلّلنا الله من أجلها.

٤

[1] "حياة القديس أنطونيوس الكبير بقلم أثناسيوس" لم تترجم إلى الإنجليزية في الفيلوكاليا لانتشار ترجمتها بالإنجليزية، وبالتالي لم أترجمها إلى العربية لانتشارها بالعربية.

نظرة العاقل للغنى

فإن كنت تنظر إلى الغنى وكمال التمتع به ليس إلا زهوًا خادعًا لأمد قصير، وتعرف أن الحياة الفاضلة التي ترضي الله هي أفضل من الغنى، وتتمسك بهذا المعتقد، وتحتفظ به في ذاكرتك، فإنك لن تتأوّه ولا تتذمر ولا توبخ أحدًا قط، بل تشكر الله على كل حال حتى إن رأيت أناسًا أشر منك يُمدحون بسبب فصاحتهم أو معرفتهم أو غناهم.

إن شهوة الغنى بجشع والملذات، ومحبة الشهوة والمجد الباطل، مقترنتين بجهل الحق، لهما أشر آلام النفس.

٥

عندما يفحص الإنسان العاقل نفسه، يرى ما يجب عليه أن يفعله، وما هو نافع له، وما هو قريب لنفسه، ويقودها إلى الخلاص، كما يرى ما هو غريب عن النفس، ويقودها إلى الهلاك، وبهذا يتجنب ما يؤذي النفس باعتباره شيئًا غريبًا عنها.

٦

الحياة المعتدلة

كلما كان الإنسان معتدلاً في حياته يصير في سلامٍ أكثر، إذ لا يكون ممتلئًا بالاهتمام بأمور كثيرة من خدم وأجراء وأغنام... إلا أننا عندما نتعلق بمثل هذه الأشياء نصير معرَّضين للضيقات التي تتبع عنها والتي تقودنا إلى التذمر على الله.

وهكذا فإن الشهوة النابعة عن إرادتنا الذاتية (لاقتناء أشياء كثيرة) تملأنا اضطرابًا، فنتخبط في ظلام حياة الخطية غير عارفين أنفسنا.

٧

إمكانية الحياة الفاضلة

يليق بنا ألا نقول باستحالة السلوك في حياة الفضيلة بالنسبة للإنسان، إنما نقول عنه إنه ليس سهلاً.

حقًا إن (حياة الفضيلة) لا ينالها الجميع بقدرٍ متساوٍ، إذ لا يحصل عليها إلا الورعون والذين لهم فكر محب لله. فالفكر العادي أرضي ومتقلب، تخرج منه أفكار صالحة وأفكار شريرة، وهو متغير يميل نحو المادَّيات، أما الفكر المحب لله فيحطم الشر الذي يأتي للبشر بسبب إهمالهم غير المتعمد.

٨

كما أن السُذَّج وغير المتعلمين يستهزئون بالعلوم ويرفضون الاستماع إلى شيء منها، لأن المعرفة عندهم جهالة، لهذا يودّون أن يكون الكل جهلاء مثلهم، هكذا أيضًا المنحلّون في حياتهم وأخلاقهم لهم شوق عظيم أن يكون الكل أشر منهم، ظانّين أنهم بهذا يجدون عذرًا لأنفسهم باعتبار أن الأشرار كثيرون.

١٣

اجتناب الأشرار

العاقل (بالمعنى الوارد في الفقرة الأولى) أو من يكون قد شرع في إصلاح نفسه، هو وحده الذي يليق به أن يدعى إنسانًا... لأن هذه الصفة (عدم القابلية للإصلاح) لا تليق بالإنسان. ومثل هذا الإنسان يجب اجتنابه.

أولئك الذين يرضون بالإثم لا يكون لهم نصيب بين الخالدين.

١٤

التعقل والخلود

إننا نصير جديرين بأن ندعى بشرًا، متى اتصفنا بالعقل (حسب المفهوم الوارد في الفقرة الأولى)، فإذا لم يتوفر العقل (بهذا المعنى) فإننا لا نختلف عن الحيوانات العُجم إلا بشكل الأطراف وموهبة الكلام.

إذًا، ليعرف الإنسان العاقل أنه خالد، كارهًا الشهوات المخجلة التي هي عِلّة موت البشر.

١٥

وكما يبرز فن الفنان بتشكيل المادة التي يستخدمها تشكيلاً جميلاً، مستخدمًا خشبًا أو ذهبًا أو فضةً... هكذا يلزمنا نحن أن نظهر إنسانيتنا لا بتركيب أجسادنا بل بكوننا "عقلاء" حقًا في أرواحنا، وبطاعتنا قانون الحياة الصالحة، أي الحياة الفاضلة والمقبولة لدى الله.

الروح "العاقلة" حقًا والمحبة لله تعرف ما يكون عليه كل شيء في الحياة، وبمحبة تستعطف الله، وتقدم له التشكرات الخالصة، وتجاهد نحوه بكل رغبتها وكل فكرها.

١٧

كما أن الربابنة (مديري الدفة) وسائقي المركبات يكتسبون خبرة في عملهم بالتمييز (الحكمة في التصرف) والجهاد المتواصل، هكذا أيضًا يليق بطالبي الحياة الفاضلة حقًا أن يستخدموا التمييز بيقظة، ويحرصوا أن يعيشوا كما يليق وكما هو مقبول لدى الله. لأن الإنسان الذي يرغب في هذه الحياة الفاضلة ويؤمن إنه يستطيع تحقيق رغبته، ينال بالإيمان عدم الفساد (الحياة النقية).

١٨

التعقل والحرية

ليس الأحرار، هم الأحرار بحسب مركزهم، بل الذين هم بحق أحرار في حياتهم وطباعهم. فمثلاً لا يجوز لنا أن ندعو المشهورين والأغنياء أحرارًا متى كانوا أشرارًا وشرسين، لأن مثل هؤلاء عبيد الشهوات الجسدية.

حرية النفس وطوباويتها، هما ثمرة النقاء الحقيقي والازدراء بالزمنيات.

١٩

التعقل العملي

ذكِّر نفسك إنه يجب عليك أن تُظهر تعقُّلك دائمًا، وذلك عن طريق الحياة الصالحة وأفعالك نفسها. وبنفس الطريقة فإن المرضى يحترمون الأطباء وينظرون إليهم كمنقذين لهم ومحسنين إليهم بالعمل لا بالكلام.

٢٠

يظهر تعقل النفس الحقيقي وفضيلتها في نظرات الإنسان وطريقة مشيه وصوته وابتسامته وأحاديثه وأخلاقه. فإن كل ما في مثل هذه النفس يكون قد تغيَّر، وصار على أفضل وجه، ويكون فكرها المحب لله حارسًا ساهرًا عليها يمنع دخول الأفكار الشريرة المخجلة.

٢٣

الذين يقضون حياتهم في جهود صغيرة ومتواضعة[١]، يصيرون أحرارًا من المخاطر وليسوا في حاجة إلى احتياطات خاصة، ويجدون الطريق المؤدي إلى الله بسهولة، وذلك بانتصارهم الدائم على الشهوات.

٢٤

التعقل وتنفيذ إرادة الله

يجب على العقلاء ألا يصغوا إلى كل صنوف الأحاديث، بل النافع منها الذي يقود إلى فهم إرادة الله. إذ إرادته هي الطريق الذي يعود بالناس إلى الحياة والنور الأبدي مرة أخرى.

٢٥

الذين يجاهدون لكي تكون لهم حياة فاضلة وحياة حب لله، هؤلاء يجب عليهم أن يتخلّوا عن الاعتداد بالذات وعن كل مجد باطل فارغ. كما يلزمهم أن يجاهدوا من أجل إصلاح حياتهم وقلوبهم.

الفكر الثابت المحب لله هو مرشد وطريق إلى الله.

٢٦

أعداء التعقل

لا فائدة من دراسة العلوم إن كانت النفس ليس لها حياة صالحة ترضي الله.

علة كل الشرور هو الغرور وعدم معرفة الله.

٢٧

التعقل والصلاة

التأمل العميق في الحياة الصالحة والعناية بالروح ينجبان أناسًا صالحين ومحبين لله.

---

[١] هنا لا يعني الكسل أو الإهمال.. بل عدم ارتباط الإنسان بمشاغل كثيرة تنسيه نفسه.

(المعرب)

من يطلب الله يجده، وذلك بغلبته على كل الشهوات بالصلاة الدائمة. مثل هذا الإنسان لا يخاف الشياطين.

٢٨

التعقل والجهاد

الذين يدركون تمامًا أن عملهم كله يجب أن يهدف نحو بلوغ الحياة الصالحة، ومع ذلك يلهون بالبركات الزمنية؛ هؤلاء أشبههم بأناس يطلبون العلاج والدواء لكنهم لا يعرفون استخدامه، ولا يضطربون لأجل (جهلهم استخدامه). لذلك ليتنا لا نعتذر عن خطايانا التي نرتكبها بحجة ظروف البيئة أو بنسبها إلى إنسان آخر، بل نلقي باللوم على أنفسنا. لأنه إن كانت نفوسنا تستسلم عن طيب خاطر للكسل، فإنها لا تقدر أن تهرب من الهزيمة.

٢٩

التعقل والإدانة

الإنسان الذي لا يعرف كيف يميز بين الخير والشر، ليس له أن يحكم في البشر أن هذا صالح وذاك شرير.

من يعرف الله يكون صالحًا. وإذا لم يكن الإنسان صالحًا فهذا يعني إنه لا يعرف الله والله لا يعرفه. لأن الصلاح هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله.

٣٠

يواجه الصالحون المحبون الناس في حضرتهم بخصوص أي أمر رديء فيهم، وأما في غيابهم فليس فقط يكفّون عن نقدهم، بل ولا يسمحون لغيرهم به، إن حاولوا النطق به.

٣١

إيّاك والغلظة في الحديث، فإن التواضع والعفة من سمات العقلاء...

الفكر المحب لله نور يضيء للنفس، كما تضيء الشمس للجسد.

٣٢

التعقل والمجد السماوي

عندما تثور فيك إحدى آلام نفسك، اذكر أن الذين يفكرون حسنًا ويرغبون في تأسيس ما لديهم على أساس قويم ثابت، لا يفرحون بالغنى الفاسد، بل بالمجد الحقيقي الذي في السماوات، وبهذا يصيرون مطوّبين.

فالثروة قد ينهبها أو يسرقها من لهم سطوة أقوى، أما فضيلة الروح فهي وحدها الممتلكات الأمينة التي لا تُسلب، هذا بجانب أنها تنقذ صاحبها بعد الموت.

الذين يفكرون هكذا، لا يخدعهم بريق الغنى الباطل، والمباهج الأخرى.

٣٣

التعقل والصمت النافع

يجب على المتزعزعين وغير المختبرين ألا يحاولوا إخضاع العقلاء لمجرد التساؤل (لا يكون همُّهم هو مجرد سؤالهم)، لأن العاقل هو من يسعى في إرضاء الله ويُكثر من الصمت، وإن تكلم يتكلم قليلاً، ينطق بما هو ضروري ومرضى لله.

٣٤

التعقل والغنى الروحي

المجاهدون نحو الحياة الفاضلة وحياة الحب لله، غيورون نحو (اقتناء) فضائل الروح كممتلكات لا تنتقل ملكيتها إلى آخر، وتجلب الراحة الأبدية. هؤلاء يستخدمون الأمور الزمنية لمجرد أنها ضرورية (وليس عن ترف)، وبحسب إرادة الله وعنايته، ويستخدمونها بفرح وكل امتنان، حتى ولو كان بقدر الكفاف.

فالمائدة الفاخرة تطعم الأجساد بكونها مادية، أما معرفة الله والغلبة على الذات والصلاح وصنع الخير مع الجميع والشفقة والوداعة... فهذه تمجد النفس.

٣٥

التعقل والخسائر الزمنية

الذين ينظرون إلى فقدان المال أو الأبناء أو العبيد أو أي شيء آخر على إنه كارثة، هؤلاء يلزمهم أولاً أن يعرفوا ضرورة الاقتناع بما يعطيه الله، والاستعداد لرد هذه الأشياء برباطة جأش متى طلبها منّا، دون أن نُزعج أنفسنا بالحزن على فقدانها أو بالأحرى على ردّها، فتكون كمن يستخدمون ما هو ليس ملكهم إلى حين ثم يردونه (إلى صاحبه).

٤٠

التعقل والمثابرة

يستحيل عليك أن تصير صالحًا أو حكيمًا في لحظة، إنما تحتاج إلى المذاكرة والحرص والتمرن والتدرب والجهاد الطويل (وفوق الكل) الرغبة القوية نحو الخير.

الإنسان الصالح المحب لله والذي يعرف الله بحق، لا يهدأ قط عن أن يصنع – بدون استثناء – كل الأمور التي ترضي الله. ولكن مثل هؤلاء يندر أن نلتقي بهم.

٤١

يجب ألا يخور الذين ليس لهم ميل طبيعي نحو الخير ولا ييأسوا، إنما يلزمهم ألا يكفوا عن الجهاد نحو الحياة الفاضلة التي ترضي الله، مهما بدا لهم إنه يصعب الوصول إليها أو بلوغها.

٤٢

القرابة الروحية والقرابة الجسدية

يتلامس الإنسان بعقله مع القوة الإلهية غير الموصوفة، وبجسده يقترب من الحيوانات. لكن قليلين من هم حقًا عقلاء ومجاهدون في توجيه أفكارهم نحو الله الفادي والتمتع بالقرابة معه، وإظهار هذا في أعمالهم وحياتهم الفاضلة.

أما الأغلبية – هؤلاء الذين ينقص أرواحهم الإحساس الصالح – فإنهم يستهينون بالبنوة الإلهية الخالدة ويميلون نحو القرابة الجسدية البائسة قصيرة الأمد التي تنتهي يومًا ما، مفكرين فقط فيما هو جسدي، ملتهبين بالشهوة كالحيوانات العُجم، حارمين نفوسهم من الله بأفعالهم، منحدرين بأرواحهم من السماء إلى هاوية الشهوات الجسدية.

٤٣

التعقل والسماويات

الإنسان العاقل الذي يفكر في الشركة مع الله والحياة به لن يلتصق قط بأي شيء دنيء أو أرضي، بل يوجه ذهنه نحو الأمور السماوية الأبدية، عالمًا أن إرادة الله – التي هي علَّة كل صلاح ومصدر كل بركات البشر – هي أن الناس يخلصون.

٤٤

التعقل والمناقشات الغبية

عندما تلتقي بإنسان محب للمجادلات، ويبدأ يجادل معك فيما هو بديهي وحق، اقطع الحديث وانسحب سريعًا، إذ تَحوَّل ذهنه إلى حجر.

فكما أن الماء يفسد أجود أنواع الخمور، هكذا المناقشات الغبية تفسد الفضلاء في السيرة وفي طباعهم.

٤٥

إن كنا نستخدم كل وسيلة ونبذل كل جهد لكي نتجنب موت الجسد، فكم بالأحرى يلزمنا أن نجاهد لكي نجتنب موت الروح؟! لأنه لا توجد عقبة أمام إنسان يرغب في الخلاص اللهم إلا إهمال النفس وتراخيها.

٤٦

يمكن للإنسان أن يقول عن غير الراغبين في تعلُّم ما هو نافع لهم وصالح أنهم ليسوا في صحة سليمة. أما الذين تعلموا الحق ومع ذلك يغالطون فيه بوقاحة، هؤلاء يُقال عنهم إن إحساسهم مقتول، وطبعهم قد صار حيوانيًا، وإنهم لا يعرفون الله ولا استضاءت نفوسهم بالنور.

٤٧

رسالة العاقل

خلق الله بكلمته حيوانات من أنواع مختلفة لفائدتنا: نستخدم بعضها كطعام والبعض في خدمتنا. أما الإنسان فخلقه الله ليكون شاهدًا لأعمال الله وشاكرًا إيّاه عليها. هذا ما يجب على البشر أن يجاهدوا لأجله، حتى لا يموتوا كالحيوانات العجماوات دون أن يروا أو يدركوا الله وأعماله.

كما يجب على الإنسان أن يعرف أن الله قادر على كل شيء، وإنه لا يستطيع أحد أن يقاوم الله القدير.

وكما أن الله أوجد كل شيء بكلمته من العدم إلى الوجود حسب إرادته، هكذا (الآن) يصنع كل شيء لأجل خلاص البشرية.

٤٨

التعقل والموت

الكائنات السمائية خالدة بالصلاح الذي فيها، أما الكائنات الأرضية فتصير مائتة بإرادتها الذاتية الشريرة، تلك الإرادة المتزايدة في غير العاقلين بواسطة كسلهم وعدم معرفتهم الله.

٤٩

الموت بالنسبة للذين يفهمونه خلود، أما بالنسبة للبُلهاء الذين لا يفهمونه فهو موت.

يجب علينا ألا نخاف هذا الموت، بل نخاف هلاك النفس الذي هو عدم معرفة الله. هذا هو ما يُرعب النفس بحق!!

٥٠

التعقل والشهوات الجسدية

تجد الخطية لها عونًا في المادة، ويصير الجسد عرشًا لها. أما النفس العاقلة فإنها إذ تفهم هذا تُلقي عنها عبء المادة وتنهض من تحت ثقلها، وتدرك الله القدير، وتغسل الجسد بحرص من غير أن تأتمنه، إذ هو عدو لها وخصم.

بهذا يتوّج الله النفس، إذ تغلب الشهوات والشرور.

٥١

التعقل ولذة الخطية

عندما تفهم النفس الخطية تكرهها (ناظرة إليها) كحيوان مفترس ذا رائحة فاسدة.

ولكن عندما تجهل النفس الخطية، تصير الخطية لها محبوبة، بل وتستعبد النفس التي تحبها وتأسرها.

فالإنسان البائس الفقير لا يُرى ما هو قادر على خلاصه، بل ولا يفكر في هذا، إنما يرحب بالخطية بسرور إذ يتصورها أنها تزينه.

٥٢

تتقدس النفس النقية وتستنير بالله لأجل صفائها. عندئذٍ يفكر ذهنها فيما هو صالح، وتتبع عنه ميول وأفعال صالحة.

أما النفس التي تتدنس بالخطية، فإن الله يتخلى عنها، بل بالحري هي التي تتركه، فتدخل إلى فكرها الشياطين الرديئة وتقترح عليه (على صاحبها) أشياء مشينة: زنا وقتل وسلب وأفعال أخرى مشابهة شريرة وشيطانية.

٥٣

يمتلئ الذين يعرفون الله بكل أنواع الأفكار الصالحة، وباشتياقهم يزدرون بالأرضيات. ولكن مثل هؤلاء الناس نادرًا ما يرضي الناس عنهم، حتى كثير من الأغبياء لا يقفون عند حد كراهيتهم بل يسخرون بهم ويذمّونهم.

وهؤلاء مستعدون أن يقبلوا الفقر المدقع، إذ يعلمون أن ما يبدو لكثيرين إنه شر، هو خير بالنسبة لهم.

ومن يفكر في الأشياء السمائية يؤمن بالله، ويعرف أن كل الخليقة هي من عمل إرادته. أما الذين لا يفكرون هكذا، فإنهم لا يؤمنون بأن العالم من صنع الله، وإنه مخلوق لأجل خلاص (نفع) الإنسان.

٥٤

التعقل ومعرفة الله

المملوءون شرًا وقد أسكرهم الجهل لا يعرفون الله، إذ هم ليسوا سامين في الروح. أما الله فلا يُعرف إلا بالذهن (أي بسمو فهمنا الروحي)، ومع إنه غير منظور لكنه يُدرك بوضوح في المنظورات، مثل الروح التي تظهر في الجسد.

وكما أن الجسد لا يقدر أن يعيش بدون الروح، هكذا لا يمكن لشيء منظور وموجود أن يثبت بدون الله.

٥٥

غاية الإنسان

لماذا خُلق الإنسان؟ لكي يمجد الله ويراه خلال خليقته، الله الذي أوجد الخليقة من أجل الإنسان.

الذهن المحب لله هو عطية غير منظورة يقدمها الله لبلوغ الحياة الصالحة.

٥٦

التحرر من الشهوات

الإنسان الحر هو ذاك الذي لا تستعبده الملذات (الجسدية)، بل يتحكم في الجسد بتمييز صالح وعفة، قانعًا بما يعطيه الله، مهما كان قليلاً، شاكرًا إياه من كل قلبه.

عندما يأتي كل من العقل المحب لله والنفس إلى الفهم، عندئذٍ يسهل ترويضه (الجسد) ولو بغير إرادته، ويمكن للنفس بواسطة العقل أن تخمد كل حركة حيوانية.

٥٧

المغالاة في طلب الغنى

الذين لا يقنعون بالكفاف بل يطلبون المزيد (بشهوة)، يستعبدون أنفسهم للشهوات التي تقلق وتدخل فيها كل الأفكار الرديئة والهواجس، أي كل ما هو شرير، مع إنه يلزمنا أن نحصل على أشياء صالحة جديدة.

وكما أن الثياب المغالى في طولها تعوق المسافرين عن السير، هكذا الرغبة المغالى فيها نحو المقتنيات تعوق النفس عن أن تجاهد وتخلص.

٥٨

عندما يجد الإنسان نفسه في حالة غير تلك التي تتفق مع إرادته وميوله، يرى نفسه إنه في سجن وعذاب. لذلك يجب عليك أن تكون راضيًا بما لديك حتى لا تتألم (من أحوالك)، وتصير غير شاكرٍ (ومتذمر غير قانع)، فتظلم نفسك بنفسك دون أن تدرى. ولكن يوجد طريق واحد: احتقر العطايا الزمنية.

٦٢

حراسة ملائكية

عندما تغلق باب مسكنك وتبقى بمفردك، اعلم أن معك ملاكًا، معيّنًا من قِبل الله لكل إنسان، وهو الذي يلقبه اليونانيون "روح البيت".

إنه لا ينام، ويرى كل شيء بمرافقته الدائمة لك، ولا ينخدع، ولا يختفي عنه شيء في الظلام.

واعلم أن الله بجوارك حالُّ في كل مكان، فإنه لا يوجد مكان أو حيّز ليس الله موجودًا فيه. إنه أعظم من الكل وممسك بيده الجميع.

٦٧

التحرر وحرية الإرادة

إن أردت، تستطيع أن تكون عبدًا للشهوات. وإن أردت، تقدر أن تتحرر منها ولا تخضع لنيرها، لأن الله خلقك وأعطاك هذا السلطان.

من يُقهر شهوات الجسد يُتوَّج بعدم الفساد. فلو لم تكن هناك شهوات ما كان يمكن أن توجد فضائل، وبالتالي ما كان يعطي الله أكاليل لمن يستحقونها.

٦٨

من لا يرون ما هو نافع لهم، ولا ينظرون ما هو صالح، هؤلاء نفوسهم عمياء وذهنهم هكذا أيضًا. فيجب علينا ألا نتطلّع إليهم لئلا بإهمالنا نسقط في آلامهم بغير إرادتنا كما يحدث مع العميان (الذين يقودهم عميان).

٧٢

حياة الشكر والمرض

اعلم أن الأمراض الجسدية هي أمر طبيعي بالنسبة للجسد، إذ هو مادي وقابل للفساد. لذلك إن حلَّ به المرض، فإنه يجب على النفس المتعلمة (الصلاح) أن تتشجع وتصبر بشكرٍ دون أن تتذمر على الله الذي خلق لها الجسد.

٧٣

نصرات مستمرة

يُتوَّج المشترك في الألعاب الأولمبية لا بانتصاره على لاعب أو اثنين أو ثلاثة، بل بعد انتصاره على جميعهم. هكذا من يرغب في أن يكلله الله يلزمه أن يتعلم العفة، لا من جهة الشهوات الجسدية فحسب، بل وينتصر عندما تجربة محبة المال والرغبة في التعلق بما ليس له، والحسد ومحبة اللذات والمجد الباطل واتهامه بأمور ذميمة وعندما تحلّ به مخاطر مميتة، وما أشبه ذلك.

٧٤

ليتنا نجاهد في الحياة الصالحة والحياة المحبة لله، لا لأجل مديح الناس، بل لأجل خلاص نفوسنا. لأن الموت ماثل أمام أعيننا كل يوم، ولأن كل ما هو بشري غير مستقر.

٨٠

حالة تغرُّب

يحصل بعض رواد الفنادق على أسِرَّة، بينما لا يجد البعض أسرة فيتمددون أرضًا وينامون بسلام تمامًا كالذين ينامون على الأسرة. وفي الصباح، إذ يعبر الليل، يقوم الكل ويغادرون الفندق حاملاً كل منهم أمتعته.

هكذا أيضًا من يسلكون في هذه الحياة، فسيترك الجميع هذه الحياة كمن يتركون فندقًا، سواء كانوا يعيشون في حياة وضيعة، أو كان لهم ثروة وشهرة. فالكل لا يحملون معهم المتع الأرضية والغنى، بل يأخذون معهم ما صنعوه في هذه الحياة، خيرًا كان أم شرًا.

٨٢

يستحيل علينا أن نهرب من الموت بأية وسيلة. وإذ يعرف العقلاء بحق هذا، يمارسون الفضائل ويفكرون في حب الله، ويواجهون الموت بلا تنهدات أو خوف أو دموع، مفكرين في أن الموت أمر محتَّم من جهة، ومن جهة أخرى إنه يحررنا من الأمراض التي نخضع لها في هذه الحياة.

٨٤

الحديث الروحي مع الأغبياء

لا تتكلم مع كل أحد عن الرحمة والحياة الفاضلة. وأنا لا أقول هذا حسدًا، إنما لأني أحسب أنك ستكون في عيني الغبي كمازحٍ.

يتفق الإنسان مع من يشبهه، والسامعون لمثل هذه الأحاديث (الروحية) قليلون، أو بالحري نادرون جدًا، لهذا من الأفضل ألا نتكلم، إذ ليس هذا (مجرد الحديث) هو ما يريده الله لأجل خلاص الإنسان.

٨٥

مشاركة النفس الجسد

تتألم النفس مع الجسد، أما الجسد فلا يتألم مع النفس (في جهادها الروحي).

عندما يكون الجسد مبتورًا تشاركه النفس آلامه، وعندما يكون قويًا وسليمًا تفرح معه النفس (إذ تستطيع النفس أن تصلّي...).

أما النفس فعندما تتأمل من جديد (تتوب)، فإن الجسد لا يشاركها في هذا بل يقف جامدًا ومقاومًا (إذ لا يريد الجسد التوبة)...

٨٦

عندما تفكر في الله كن ورعًا، متحررًا من الحسد، صالحًا، عفيفًا، وديعًا، سخيًا قدر المستطاع، صديقًا، غير مجادلٍ، وما أشبه ذلك. فإنك إذ ترضي الله بهذا كله إنما يكون لنفسك ثروة لا تُسلب.

علاوة على هذا يجب عليك ألا تدين أحدًا، أو تنطق عنه بشيء غير حسن حاسبًا إيّاه خاطئًا. فإنه من الأفضل للإنسان أن يبحث بنفسه عن أعماله الشريرة ويمتحن حياته إن كانت ترضي الله. لأنه ماذا تستطيع أن تفعل (لمن تدينه) لو تبين لك إنه غير صالح؟!

٨٧

مفهوم الورع

يجاهد الإنسان الحقيقي لكي يكون ورعًا، والإنسان الورع هو الذي لا يشتهي شيئًا غريبًا عنه. والشيء الغريب عنه هو كل ما هو مخلوق.

فلكونك صورة الله، يجب عليك أن تزدري بكل الأشياء (المخلوقة). وهذا يستحيل عليك ما لم تقلع عنك كل ما هو شهواني.

الإنسان الذي فكره محب لله، له خبرة في كل ما هو نافع للنفس، وفي كل أعمال التكريس التي تُطلب منه.

والإنسان المحب لله لا يوبخ أحدًا، إذ يعلم إنه هو أيضًا خاطئ. وهذه هي علامة النفس السالكة في طريق الخلاص.

٩٠

المدح والذم

من يتقدم في حياة تقوية، لا يسمح للشر أن يدخل إلى نفسه، وعندما تتحرر نفسه من الشر يكون في سلام وأمان. مثل هذا الإنسان، ليس للشياطين الأشرار أو الحوادث الطارئة سلطان عليه، إنما يُخلِّصه الله من كل شر، ويعيش في حماية غير منظورة، لأنه محب الله.

إن مدح أحد مثل هذا الإنسان، فإنه لا يكترث بهذا، وإن سبَّه أحد فلا يدافع عن نفسه ضد شاتمه، ولا يسخط على قول من أقواله.

٩١

لا تلتصق بالعظماء والأغنياء

يلتصق الشر بطبيعتنا كالتصاق الصدأ بالحديد، والتراب بالجسد.

وكما أن الصدأ ليس من صنع الحداد، والتراب ليس من وضع الوالدين هكذا الشر ليس من عند الله. بل وهب الله الإنسان ضميرًا وعقلاً لكي يتجنب الشر، يكشفان له أن الشر مضر ويجلب عذابات. لذلك يجب

عليك أن تكون أكثر حرصًا. فعندما تقابل إنسانًا ذا عظمة وثروة لا تترك للشياطين مجالاً لكي تخدعك فتنقاد له، بل ضع في الحال الموت نصب عينيك وعندئذٍ لن تشتهي شيئًا رديئا أو أرضيًا.

٩٣

علاقة العقل بالنفس والجسد

الحياة هي اتحاد بين العقل (الروح) والنفس والجسد، وترابط بينهم، وأما الموت فهو تمزيق لهذه الوحدة، ولكن لا هلاك لهذه (العناصر) كلها بل يحفظها الله حتى بعد الانفصال.

٩٤

العقل غير النفس، فهو عطية من قبل الله لأجل خلاص النفس.

العقل الذي يرضي الله، يتدفق أمام النفس ويشير عليها أن تزدري بالزمنيات الماديات الفانيات، وإن تحب البركات الروحية الأبدية غير الفاسدة، حتى أن الإنسان وهو بعد في الجسد يدرك السماويات والإلهيات بذهنه ويتأمل فيها. بهذه الكيفية يكون العقل المحب لله نافعًا للنفس البشرية ومنقذًا لها.

٩٦

النفوس التي لا يلجمها العقل ولا يسيطر عليها الذهن ويقمع شهواتها من لذات وآلام، ويدبرها ويوجهها (توجيها سليمًا)، هذه النفوس تهلك كالحيوانات العجماوات. لأن عقولهم تسحبها الشهوات، كما تسحب الخيول الجامحة سائقيها.

٩٧

اعرف نفسك!

إن أخطر أمراض النفس وأشر الكوارث والنكبات، هي عدم معرفة الذي خلق الكل لأجل الإنسان ووهبه عقلاً وأعطاه كلمة بها يسمو إلى فوق وتصير له شركة مع الله، متأملاً وممجدًا إيّاه.

٩٨

توجد النفس في الجسد، ويوجد العقل في النفس، وتوجد الكلمة في العقل، وبالكلمة نتأمل الله ونمجده، الذي يعطي خلودًا للنفس ويهبها سعادة أبدية غير فاسدة. لأن الله وهب الوجود بمفرده بصلاح الله.

١٠٠

الله مصدر الصلاح

يكتسب الإنسان الصلاح من الله، إذ هو صالح.

أما الشر فيخضع له من داخله، إذ فيه الشر والشهوة وعدم الحساسية.

١٠٢

الله صالح، أما الإنسان فشرير.

لا يوجد في السماء شر، ولا على الأرض صلاح حقيقي. لكن الإنسان العاقل يختار الأفضل. إنه يتعلم أن يعرف الله القدير، ويشكره ويمجده، وإن يقمع جسده حتى قبل الموت، ولا يشبع مشاعر (شهوات) الجسد، لأنه يعلم ضررها وعملها الخبيث.

١٠٣

محبة العالم

من يحب الخطية يحب المقتنيات الكثيرة، ويهمل البرّ، ولا يفكر في زوال الحياة وعدم ثباتها وقصر أجلها، ولا يتذكر حتمية الموت الذي لا يُرتشى.

وإن أظهر الإنسان عدم الحياء هذا، والنقص في الإحساس حتى بلوغه الشيخوخة، فإنه يكون كشجرة متعفنة لا نفع لها.

١٠٥

الكلمة خادمة للعقل، فما يرغبه العقل تعبر عنه الكلمة.

١٠٦

يرى العقل كل شيء، حتى الأمور التي في السماء، ولا شيء يجعله مظلمًا سوى الخطية. فالعقل النقي لا يجد صعوبة في فهم شيء، وكلمته لا تجد صعوبة في التعبير عن شيء.

١٠٧

التعقل والسكون

الإنسان بجسده قابل للموت، أما بذهنه وكلمته فهو خالد.

في الصمت ترى عقلك، ولكن عندما تستخدم عقلك فإنك تتكلم في داخل نفسك. لأنه **أثناء الصمت يلد العقل الكلمة، وكلمة الشكر التي تقدم لله هي خلاص الإنسان.**

١٠٨

من يتكلم بغباء ليس له عقل، إذ يتكلم دون أن يفكر في كل الأمور. لذلك امتحن ما هو مفيد لك، لأجل خلاص نفسك، لكي تفعله.

١٠٩

الكلمة العاقلة التي تفيد النفس هي عطية من قبل الله، أما الكلمة الفارغة التي تبحث في مجرد مقاييس السماء والأرض، والبعد بينهما، وأحجام الشمس والنجوم، فإن هؤلاء الذين يعملون في ذلك... يكونون كمن يُخرجون الماء بمنخل، لأن البشر لا يقدرون أن يكتشفوا (كل) هذا[١].

١١٠

[١] المسيحية لا تمنع أولادها من البحث في العلوم والفلك وأبحاث الفضاء... لكن تحذّرهم من الكبرياء والمجد الباطل، إذ يظن الإنسان باكتشافه القليل من القوانين غير المحصية التي وضعها الله لنفعنا إنه صار إلهًا!! (المعرب).

رؤية السماء!

لا يرى أحد السماء (الروحية) ولا يقدر أن يعرف ما فيها إلا الذي يجاهد في الفضيلة، فيعرف الله ويمجد ذاك الذي خلق السماء لأجل خلاص الإنسان وحياته.

هكذا يعرف الإنسان المحب لله – بدون شك – إنه لا يوجد شيء بدون الله، هذا الذي هو في كل مكان وفي كل شيء، إذ هو الله الذي لا يحده شيء.

١١١

كما يخرج الإنسان من بطن أمه عريانًا، هكذا أيضًا تخرج النفس من الجسد.

تخرج بعض النفوس نقية ومتلألئة، وأخرى ملطخة ومتدهورة، وثالثة مدنسة بخطايا كثيرة.

لهذا فإن النفس العاقلة المحبة لله، إذ تذكر التجارب والشدائد المنتظرة بعد الموت، وتتأمل فيها، فانها تعيش في بر حتى لا تُدان، ولا تخضع لهذه الشدائد،

أما غير المؤمنين فليس لهم مثل هذه المشاعر، إذ يرتكبون الخطايا مستهينين بما ينتظرهم.

١١٢

كما أنك عندما تركت الرحم لم تعد تذكر ما كان يحدث لك فيه، هكذا عندما تترك الجسد لا تعود تذكر ما حدث وأنت فيه.

١١٣

وكما أنك بتركك الرحم صرت إلى حال أفضل ونمى جسدك، هكذا عندما تترك الجسد وأنت نقي وغير مدنس تصير في حال أفضل غير قابل للفساد.

١١٤

مفهوم الموت

وكما أن الجسد يجب أن يُولد عند تمام نموه في الرحم، هكذا يلزم على النفس أن تترك الجسد عندما تصل إلى نهاية الحياة بالجسد في الوقت المعين من قبل الله.

١١٥

كما أنك تعالج النفس وهي في الجسد، فإنها هي ستعالجك عندما تترك الجسد.

الإنسان المتهاون مع جسده في هذه الحياة، مقدمًا له كل صنوف الراحة، إنما يقدم لذاته مرضًا بعد الموت، جالبًا على نفسه دينونة بغباوة.

١١٦

كما لا يقدر الجسد أن يعيش إن ترك الرحم قبل أن يكتمل، هكذا لا تقدر النفس أن تخلص أو يكون لها شركة مع الله عند تركها الجسد ما لم تنل التطلع إلى الله بحياتها الصالحة (وهي في الجسد).

١١٧

خضوع الجسد للنفس

اتحاد الجسد بالنفس يعدّه للظهور إلى النور من ظلام الرحم. أما اتحاد النفس بالجسد (خضوعها له) فيحبسها في ظلام الجسد. لهذا يجب علينا ألا نشفق على الجسد، بل نقمعه كعدو للنفس وخصم لها. فالانهماك في المأكولات الشهية يثير الشهوات الشريرة، والمعدة الزاهدة تخمد الشهوات وتنقذ النفس.

١١٨

البصيرة الداخلية

العين هي مصدر نظر الجسد، والعقل هو مصدر نظر النفس.

وكما يكون الجسد أعمى بدون العينين فلا يعاين الشمس المنيرة على الأرض والبحر، ولا يقدر أن يتمتع بضيائها، هكذا تكون النفس عمياء بدون العقل السليم والحياة الصالحة، فلا يكون لها معرفة بالله، ولا تمجد الخالق صانع الخيرات للبشرية كلها، ولا تقدر أن تتمتع بالفرح عن طريق حصولها على عدم الفساد ونوالها تطويبًا أبديًا.

١١٩

الجهالة

عدم الإحساس وعدم التعقل يولد في النفس الجهل بالله، وهذا الجهل يولد الشر. وأما معرفة الله فتجلب الصلاح وتنقذ النفس.

لهذا إن بقيت في حالة من السمو مع معرفة بالله ومحاولة عدم إشباع شهواتك الخاصة، يتجه عقلك إلى الفضيلة. لكنك إن سكرت بالجهل بالله وتمتعت بإشباع شهواتك الشريرة، ناسيًا الشدائد التي تنتظرك بعد الموت فإنك تهلك كالحيوان الأعجم.

١٢٤

خلود النفس

من يفهم ما هو الجسد، أي إنه قابل للفساد وقصير الأجل، يفهم أيضًا أن النفس سمائية وخالدة، وأنها نسمة من الله، ومرتبطة بالجسد إلى أن تتقدم وتسمو نحو التشبه بالله.

الإنسان الذي يفهم النفس فهمًا سليمًا، يسلك في حياة مستقيمة ترضي الله، ويحذر من الجسد ولا يتهاون معه. كذلك بتأمل الذهن في الله، يرى البركات الأبدية عقليًا (روحيًا)، هذه التي يهبها الله للنفس.

١٢٥

الحرية الإنسانية

الله كصالح ومحب (جوَّاد) وهب الإنسان حرية بخصوص الخير والشر، واهبًا إياه عقلاً به يقدر أن يعاين العالم وكل ما فيه، فيعرف الله الذي خلق لأجله كل شيء.

أما الإنسان الشرير فإنه قد يرغب في هذا (معرفة الله)، لكنه لا يفهم بل يهلك بعدم إيمانه وبتفكيره المناقض للحقيقة.

هذه هي حرية الإنسان فيما يختص بالخير والشر.

١٢٦

النفس العاقلة!

وضع الله قانونًا، وهو إنه كما أن الجسد ينمو، هكذا يجب على النفس أن تمتلئ بالعقل (الفهم الروحي). فيختار الإنسان الصلاح أو الشر، حسب مسرة عقله.

والنفس التي لا تختار الصلاح تكون بلا عقل. إذ إنه بالرغم من أن كل الأجساد لها نفوس، لكن ليس كل نفس لها عقل (أي عاقلة).

يوجد العقل المحب لله بين الطاهرين، العادلين، الأبرار، الصالحين، الأتقياء، الرحومين، الورعين. وقد وجد العقل ليعين الإنسان في علاقته مع الله.

١٢٧

أمر واحد مستحيل بالنسبة للإنسان، وهو أن يهرب من الموت. أما إن كان للإنسان شركة مع الله، فهذا ممكن للإنسان إن عرف الطريق. فإن أراد، وعرف الطريق، يستطيع بالإيمان والحق أن يختبر الحياة الصالحة ويجتمع بالله.

١٢٨

تعاين العين ما هو منظور، ويدرك العقل ما هو غير منظور. فالعقل المحب لله هو نور للنفس...

١٣١

كما أن الجسد بدون النفس ميت، هكذا النفس بدون العقل خاملة (عقيمة) وتعجز عن أن ترث الله.

١٣٢

حب الله الفائق للإنسان

يصغي الله إلى الإنسان فقط، وله وحده يكشف ذاته لأن الله يحب البشر، وحيث وجد الإنسان يوجد الله أيضًا.

والإنسان (وحده) هو المؤهل لعبادة الله، إذ لأجله تجسد الله.

١٣٣

اختر الصلاح!

كما أن السماء غير منظورة، هكذا الصلاح غير منظور. وكما أن ما على الأرض منظور هكذا الشر أيضًا منظور.

الصلاح لا يمكن أن يقارن، وللإنسان بذهنه أن يختار الأفضل...

١٣٥

يوجد في النفس عقل يعمل، أما الجسد فتوجد فيه الغريزة. ويجعل العقل النفس إلهية، وتفسد الغريزة الجسد (أي إذا أشبعنا غرائزنا وشهواتنا الطبيعية).

تعمل الغريزة في كل جسد، لكن ليس كل نفس يعمل فيها العقل. لهذا ليس كل نفس تخلص.

١٣٦

... النفس التي تعرف حقيقة العالم ما هو، وترغب في أن تخلص، لها قانون صارم، وهو أن تفكر في كل ساعة في داخلها، قائلة: "إنها ساعة يأتي فيها (الموت) وتأتي دينونة (الأعمال)، حيث لا تقدرين (يا نفسي) أن تحتملي (نظرات) الديان، وها أنتِ أوشكتِ على الهلاك".

بهذا التفكير تحفظ النفس ذاتها من الملذات المعيبة.

١٣٨

ما هو مائت ثانوي بالنسبة لغير المائت، ويخدمه، بمعنى أن المادة (الجسد المادي) يخدم الإنسان وذلك بفضل تحنن الله الخالق وصلاح جوهره (إذ أعطى أن يخدم الجسد النفس).

١٤٠

بحنان خالقنا توجد طرق كثيرة للخلاص، هذه التي تهدى الأرواح وتقودها نحو السماء...

١٤٢

الجسد نهر نعبره!

إن كان الذين تلزمهم الضرورة أن يعبروا أنهارًا واسعة، هؤلاء متى كانوا متيقظين يحافظون على حياتهم، لأنه حتى وإن كانت الأمواج هائجة أثناء إبحار قواربهم، فإنهم يُنقذون أنفسهم بأن يمسكوا بأي شيء على الشاطئ، أما إن كانوا سكارى، فإنهم وإن قاموا بمحاولات لا حصر لها لكي يسبحوا إلى الشاطئ، فإن الخمر يغلبهم، فيغرقون وسط الأمواج ويفارقون الحياة. هكذا النفس أيضًا إن سقطت بين أمواج هائجة وسط دوامة تيارات الحياة، فإنها بجهادها الذاتي لا تقدر أن تتغلب على محبة الجسد كما تعجز عن أن تعرف (بذاتها) أنها نفس إلهية خالدة مرتبطة بجسد مادي قابل للموت مملوء شهوات... وإن هذا هو محك لاختبارها، فإن سمحت لنفسها أن تتلوث بالشهوات الجسدية فإنها تهلك ويكون هلاكها وخروجها من دائرة الخلاص نتيجة إهمالها وسكرها بالجهل واستخفافها بالصلاح. إن الجسد كنهر غالبًا ما يبتلعنا بالملذات الدنيئة.

١٥٠

عدم احتياج الله إلى صلاحنا!

الله صالح، ليس فيه انفعالات، ولا يتغير.

يقبل الإنسان هذا – القول – كحقيقة صادقة بأن الله لا يتغير، لكنه يحار متسائلاً كيف يفرح الله بالصالحين، ويترك الأشرار، ويغضب على الخطاة ويظهر لهم رحمة إن تابوا؟!

والإجابة على هذا هي أن الله لا يفرح ولا يغضب، لأن الفرح والغضب انفعالات، ومن السخافة أن نظن أن اللاهوت يمكن أن ينتفع أو يُضر بواسطة تصرفات بشرية.

فالله صالح، ولا يصنع إلا الصلاح. إنه لا يضر أحدًا ويبقى كما هو عليه على الدوام. أما بالنسبة لنا، فإننا عندما نكون صالحين ندخل في شركة مع الله بتشبهنا به. وعندما نصير أشرارًا نحرم أنفسنا من الله بعدم تشبهنا به.

عندما نعيش حياة فاضلة نكون ملكًا لله، وعندما نصير أشرارًا نهجره. هذا لا يعني إنه يغضب منا بل من خطايانا التي تحجب وجهه عنا وتربطنا بالمضايقين الذين هم الشياطين.

أما (عند التوبة) فإنه بالصلوات وصنع الخير (مع الإيمان به) نحصل على نزع الخطايا. هذا لا يعني أننا نسترضيه ونُغيّره، بل إننا بأعمالنا هذه وعودتنا إليه نكون قد شُفينا (بنعمته) من الشر الذي في أنفسنا، وصرنا قادرين على أن نكون شركاء لله في صلاحه.

هكذا أيضًا بالنسبة للقول "إن الله يترك الأشرار"، فإننا كمن يقول بأن الشمس تخفي ذاتها عمن يفقدون بصرهم.

١٥٤

رؤية الله

العقل الذي يحيا في نفس محبة لله، يرى بالحق الله غير المنظور ولا موصوف...، يرى الله الذي وحده طاهر بالنسبة للطاهرين.

١٥٦

العناية الإلهية

العالم تصونه العناية الإلهية، إذ لا يوجد مكان لا تدركه هذه العناية.

والعناية الإلهية هي تنفيذ مواعيد الكلمة الإلهية، الذي يهب شكلاً للمادة التي يتكون منها هذا العالم، وهو المهندس والفنان لهذا كله.

فالأشياء ما كان يمكن لها أن تأخذ جمالها لولا فطنة قوة الكلمة الذي هو صورة الله (الآب) وعقله وحكمته وعنايته.

١٦٠

الإنسان الذي يريد ويؤمن، لا يكون طريق إدراكه لله صعبًا.

فإن أردت أن تعاين الله، تأمل كمال نظام الخليقة التي أوجدها بكلمته، وعنايته بها، فإنه خلق هذا كله من أجل الإنسان.

١٦١

من يتنقّى من الشر والخطية يدعى قديسًا. وهكذا فإن غياب الشر عن الإنسان هو كمال أعظم للنفس ويرضى الله جدًا.

١٧٠

حياة الشكر

عندما تنام على سريرك، تذكر بركات الله، وعنايته بك، وأشكره على هذا، فإذ تمتلئ بهذه الأفكار تفرح في الروح. وعندئذٍ يكون في نوم الجسد سموًا لنفسك، وإغلاق عينيك بمثابة معرفة حقيقة لله، وصمتك وأنت مشحون بمشاعر صالحة هو تمجيد لله القدير من كل القلب وكل القوة، مقدما لله تسبيحًا يرتفع إلى الأعالي. لأنه عندما لا يوجد شر في الإنسان، فإن الشكر وحده يرضي الله أكثر من تقدمات ثمينة، هذا الذي له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

القديس أنطونيوس الكبير

٢. توجيهات لأبينا الطوباوي أنطونيوس الكبير عن

الحياة في المسيح

مأخوذة عن رسائله العشرين

١٦

طريق التوبة والجهاد

إني أرى أن نعمة الروح القدس على أتم استعداد لكي تملأ أولئك الذين يعزمون منذ البداية أن يكونوا ثابتين في محاربتهم للعدو (الشيطان) غير مستسلمين في أي أمر من الأمور، حتى يغلبونه.

وعلى أي الأحوال، يقوم الروح القدس الذي دعاهم، بتسهيل كل الأمور لهم حتى يجعل لهم بداية طريق التوبة عذبًا (ممهدًا)، لكنه يعود فيكشف لهم بعد ذلك حقيقة الطريق (شدة مصاعبه وأتعابه). وإذ يعينهم الروح القدس في كل شيء، يضع على عاتقهم أن يقدموا أعمال التوبة اللازمة، كما يكشف لهم ما هي أعمال الجسد والنفس... إلى أن يرجعهم إلى الله خالقهم في توبة صادقة.

بهذا الهدف يقويهم الروح القدس للجهاد جسدًا ونفسًا، حتى يصير كلاهما (الجسد والنفس) متشابهين في الطهارة كما في ميراث الحياة الأبدية.

فمن جهة الجسد، فإنه يكافح في أصوام مستمرة وجهاد وأسهار دائمة، وأما النفس فتجاهد في تداريب روحية مع مثابرة في كل أنواع الخدم (الطاعة) منفذة ذلك خلال الجسد.

لذلك يجب علينا أن نراعي (ألا نصنع شيئًا بإهمال بل يكون كل شيء بحرصٍ دائمٍ وفي خوف الله) وذلك في كل عمل نقوم به بالجسد، حتى يأتي بالثمر.

(رسالة ١)

١٧

الروح القدس وطهارة النفس والجسد

الروح القدس الذي يدعو الإنسان التائب إلى التوبة، يمنحه تعزياته أثناء قيادته للقيام بالعمل الروحي، ويعرفه عدم التراجع إلى الوراء، وعدم التعلق بشيء من أمور العالم.. ويفتح عيني نفسه حتى ترى (النفس) جمال النقاوة التي تصل إليها بأعمال التوبة.

بهذه الطريقة يشعل الروح القدس في النفس غيرة نحو نقاوتها ونقاوة الجسد بالكامل، فيكون كلاهما واحدًا في النقاوة.

هذا هو هدف تعاليم الروح القدس وإرشاداته، أن ينقيهما الروح القدس تمامًا ويحضرهما إلى حالتهما الأولى قبل السقوط، مبددًا كل نجاسة دخلت إليهما بحسد الشيطان، غير تاركٍ شيئًا من صنع العدو فيهما. عندئذٍ يصير الجسد خاضعًا للعقل في كل شيء، ويكون للعقل السيادة في أمر أكل الجسد وشربه ونومه وكل عمل من أعماله، متعلمًا من الروح القدس أن يقمعه ويستعبده (١ كو ٢٧:٩) كما فعل الرسول بولس.

(رسالة ١)

١٨

حركات الجسد الثلاث

من المعروف أن في الجسد ثلاثة أنواع من الحركات:

النوع الأول: حركة طبيعية موروثة فينا، هذه الحركة ليس لها سلطان علينا أن تثير فينا – بدون موافقة النفس – شيئًا (شريرًا يثقل الضمير)، ويكفيك أن تعرف أنها موجودة في الجسد.

النوع الثاني: ينجم عن كثرة الأكل والشرب، لأن حرارة الدم المتولد عن (كثرة الأغذية) تثير الجسد ضد النفس، وتنحرف به نحو الشهوات الدنيئة. لهذا يقول الرسول بولس: "لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة" أف ١٨:٥، ويأمر الرب أيضًا تلاميذه في الإنجيل قائلاً: "فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسكر" لو ٣٤:٢١.

لذلك يجب على الرهبان وراغبي البلوغ إلى ملء القداسة والنقاوة، أن يحذروا من هذا دائمًا، قائلين مع الرسول "أقمع جسدي واستعبده" ١ كو ٢٧:٩.

النوع الثالث: يثيره الأرواح الشريرة، التي يدفعها الحسد إلى تجربتنا ومحاولة إضعاف من وجدوا الطهارة.. وتضليل الراغبين في الدخول من بابها..

(رسالة ١)

١٩

اليقظة الروحية والسلام الإلهي

على أي الأحوال، إن تسلح الإنسان بالصبر والإيمان المستقيم بوصايا الله، فإن الروح القدس يعلِّم عقله كيف تتنقى نفسه ويتنقى جسده من مثل هذه الحركات.

لكن إن غفل الإنسان في أي لحظة وسمح لنفسه بالتهاون في الوصايا والتعاليم التي سمعها، تتسلط الأرواح الشريرة (الخطية) عليه، وتفسد أعضاء جسده وتدنسها بهذه الحركات، وتقف النفس المعذبة تائهة لا تعرف أن تتوجه، إذ في وسط يأسها لا ترى عونًا من أي جانب.

لكن إن سمعت النفس إلى الوصايا وعادت تحمل النير (متحققة من قوة تعهداتها)، مؤتمنة ذاتها بين يدي الروح القدس، فإنه بهذا تستعيد سلامها، وتدرك أنه كان يلزمها أن تطلب سلامها في الله وحده، إذ هو وحده السلام الممكن.

(رسالة ١)

٢٠

الروح القدس وتقديس الجسد

يتطلب الجهاد للحصول على النقاوة الكاملة جهاد النفس والجسد معا في أعمال التوبة، بتناسقٍ وتساوٍ.

فإذا وُهب العقل نعمة ما، يستطيع عندئذٍ أن يصارع ضد الشهوات بلا هوادة أو تراخٍ، ويتقبل أفكار الروح القدس وتوجيهاته وتعزياته، ويستطيع أن يطرد عن النفس الميول الدنسة النابعة عن شهوات القلب.

وبفضل الشركة بين عقل الإنسان أو نفسه والروح القدس، يساعد الروح القدس الإنسان على تنفيذ الوصايا التي تعلمها، ويرشده لطرد كل الشهوات عن النفس، سواء الشهوات النابعة عن النفس ذاتها مستقلة عن الجسد، أو تلك التي لحقت بها عن طريق الجسد.

والروح القدس يعلم الإنسان أن يحفظ جسده كله – من الرأس إلى القدمين – في تناسق:

فيحفظ **العينين** لتنظرا بنقاوة.

ويحفظ **الأذنين** لتصغيا في سلام، أو تنصتا إلى الأمور الخاصة بالسلام دون أن تتلذذا بالأحاديث عن الآخرين والافتراءات وذم الغير.

ويحفظ **اللسان** لينطق بالصلاح فقط، معطيًا وزنًا لكل كلمة، فلا يسمح لشيء دنس أو شهواني أن يختلط بحديثه.

ويحفظ **اليدين** لتتحركا طبيعيًا فترتفعان للصلاة ولصنع الرحمة والكرم.

ويحفظ **المعدة** ليكون لها حدود مناسبة للأكل والشراب، وذلك حسب القدر الكافي لقوت الجسد، فلا يترك الشهوة أو النهم ينحرفا بها فتتعدى حدودها.

ويحفظ **القدمين** ليسلكا ببر حسب إرادة الله، بهدف القيام بالأعمال الصالحة.

بهذا يكون **الجسد كله** قد اعتاد على كل عمل صالح، وصار خاضعًا لسلطان الروح القدس، فيتغير شيئًا فشيئًا حتى يشارك – إلى حد ما – في النهاية في صفات الجسد الروحي الذي يناله في القيامة العادلة.

(رسالة ١)

٢٢

الله الآب في صلاحه "لم يشفق على ابنه (الوحيد) بل بذله" رو ٣٢:٨، لكي يحررنا من خطايانا وأفعالنا الأثيمة.

وإذ وضع ابن الله نفسه لأجلنا، شفانا من شرور نفوسنا، ووهبنا الخلاص من خطايانا.

وإنني أنصحكم باسم ربنا يسوع المسيح أن تحفظوا في عقولكم هذا التدبير العظيم وتعلموه... أن الله الكلمة تشبَّه بنا في كل شيء ماعدا الخطيئة. وأنه يجب على منُ وهبوا (عقلاً) أن يدركوا هذا بعقلهم (فهمهم الروحي) مجاهدين أن يتحرروا (من الخطية) في أعمالهم الفعلية وذلك بصلاح الرب القادم إلينا.

والذين يستفيدون من هذا التدبير هم بحق عبيده، لكن هذا الوضع (عبيد) ليس فيه كمال. إذ الكمال يقودهم إلى البنوة، وهو تكريس يأتي في حينه.

هكذا عندما رأى ربنا يسوع المسيح أن تلاميذه قد اقتربوا من قبولهم البنوة، وعرفوه وتعلموا من الروح القدس، قال لهم: "لا أعود أسميكم عبيدًا... لكنى قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي" (يو ١٥:١٥).

فالذين أدركوا ما قد آلوا إليه في المسيح يسوع، صرخوا قائلين: "لم نأخذ روح العبودية أيضًا للخوف بل أخذنا روح التبني الذي به نصرخ يا آبا الآب" (راجع رو ١٥:٨).

فإن فشل الإنسان في إظهار استعداد كامل وغيرة للقيام (من الخطية)، فليعلم مثل هذا أن مجيء ربنا ومخلصنا يكون دينونة عليه. لذلك قال سمعان (الشيخ) منذ البداية: "إن هذا وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تُقاوم" لو ٣٤:٢. قال الرسول من بعده: "لهؤلاء رائحة موت لموت ولأولئك رائحة حياة لحياة" (٢ كو ١٦:٢).

(رسالة ٢)

٢٣

مقاومة عدو الخير

إنه ليس بخافٍ عليكم أن أعداء الحق (الشياطين) لن يكفوا عن العمل على إفساد الحق. لكن الله افتقد خليقته في كل زمان، ففي بداية الخليقة علّم الذين اقتربوا لخالقهم كيف يعبدونه. غير أن كثافة الجسد الشهواني ومكر الأعداء المحاربين لنا عطّلتا الميول الصالحة للنفس، وصار الناس غير قادرين حتى على التمسك بما يليق بطبيعتهم وتمييزهم، لكي يرجعوا إلى حالتهم الأولى متحررين من الخطية، لذلك أظهر الله رحمةً وعلّمهم العبادة الحقيقية بالناموس المكتوب.

لكن حتى بهذا لم تأتِ الثمرة... ورأى الله أن الجرح يتزايد ويتسع ويحتاج إلى علاج حاسم، لذلك أرسل ابنه الوحيد، الذي هو طبيبنا الوحيد.

(رسالة ٣)

٢٤

مجيء المسيح صار خلاصًا ودينونة

عندما أغلب بحب يسوع المسيح، انظر إلى الحال الذي وصلنا إليه، فأشعر بسرور، كما أشعر بحزن وبكاء.

كثيرون جدًا من جنسنا لبسوا شكل العبادة، لكن بعضهم يصنعون هذا بكل قلوبهم بعدما تحرروا بمجيء ربنا يسوع المسيح، هؤلاء هم موضوع سروري،

ويهمل البعض قوة نذرهم، ويتبعون مشيئة الجسد وشهوات قلوبهم، وقد صار مجيء الرب بالنسبة لهم عقوبة، هؤلاء موضوع حزني.

وأخيرًا البعض خارت قلوبهم بسبب تفكيرهم في طول جهادهم (حياتهم) فنزعوا الرحمة من قلوبهم، وصاروا كحيوانات عجماوات، هؤلاء أبكي عليهم لأن مجيء ربنا يسوع المسيح صار لهم دينونة.

(رسالة ٣)

٢٦

لا تتكل على خبرتك البشرية

يستطيع كل بحار أن يعتز بذاته ويفخر بخبرته عندما تهب الرياح بطريقة ثابتة (متوقعة)، لكن إن حدث تغير مفاجئ للرياح، عندئذٍ تبطل خبرة الربابنة المحَّنكين.

٢٨

قدم ذاتك ذبيحة محرقة

يرشد الله الكل بعمل نعمته، فلا تملّوا ولا تخور قلوبكم، بل اصرخوا إليه ليلاً ونهارًا لتقتنوا حنو الله فيعلمكم من الأعالي ما يجب أن تفعلوه.

لا تعطوا لأعينكم نومًا، ولا لأجفانكم نعاسًا (مز ١٣١:٤) حتى ترفعوا نفوسكم ذبائح محرقات طاهرة، وتعاينوا الله. لأنه بدون قداسة لا يقدر أحد أن يعاين الله (عب ١٢:٤)، كقول الرسول.

(رسالة ٥)

٣٠

حاجتنا إلى نار إلهية

كل من لا يبغض ما يخص الهيولية (المادية) والجسد الأرضي وحركاته وأفعاله من كل قلبه، ويرفع عقله نحو العلاء إلى أبى الكل، لا يستطيع أن يخلص.

أما الذي يفعل هذا، فإنه بهذا يستعطف ربنا فيهبه نارًا مقدسة في قلبه، تحرق كل ما فيه من شهوات، وتطهر عقله تمامًا، عندئذٍ يقطن فيه روح ربنا يسوع المسيح ويكون معه ويعلمه كيف يسجد للآب كما يجب.

وإن بقينا متلذذين بالجسد الهيولي، فنحن أعداء الله وملائكته وجميع قديسيه.

لذلك أطلب إليكم باسم ربنا يسوع المسيح أن لا تستهينوا بحياتكم وخلاصكم ولا تدعوا هذا الزمان اليسير يسرق منكم الأبدية اللانهائية، ولا هذا الجسد الهيولى أن يُبعدكم عن ملكوت النور الذي لا يُحد ولا يُوصف.

بالحقيقة إن نفسي مضطربة وروحي ساهية، لأنه بالرغم من أنه قد وهب لنا الحرية لنقوم بما يقوم به القديسون، إلا أننا قد سكرنا بالآلام (الشهوات) كمن يسكر بالخمر، ولا نريد أن نرفع عقولنا إلى الأعالي ونطلب المجد السماوي، ولم نقتدِ بأعمال القديسين ولا سلكنا على آثار خطواتهم، حتى نصير ورثة لأعمالهم ونشاركهم الميراث الأبدي.

(رسالة ٥)

٣٢

استخدام الشياطين لأجسادنا

يا لها من ربوات الشياطين الشريرة، ووحوش مفترسة بلا عدد، تلك التي تحثنا أن ننطق بالشر ضد الآخرين، أو نتفوه بكلمات معسولة تخفي مرارة في قلوبنا، وندين اخوتنا حسب المظاهر الخارجية... فنخفي في داخل نفوسنا حيوانًا مفترسًا يحرّضنا على مقاومة بعضنا البعض حتى يزكي كل منا طريقه الخاص على أنه أكثر الطرق استقامة.

يتلذذ كل إنسان بأفكاره الشريرة فيسقط بإرادته، لأنه يفرح بما يلقيه الأعداء (الشياطين) فيه، مزكيًا نفسه بأفعاله المنظورة، بينما هو مسكن للروح الشرير الذي يشير عليه بكل الشرور، وجسده مملوء نجاسة دنيئة إذ هو فريسة للشهوات الشيطانية التي لم يتخلص منها.

ليس للشياطين أجساد منظورة، لكننا متى قَبِلت أرواحنا أفكارهم المظلمة، نكون نحن بمثابة أجساد لها، لأننا إذ نقبل أفكارها إنما نقبلها هي بذاتها، ونجعلها ظاهرة جسديًا (فينا).

(رسالة ٦)

٣٣

جسدك مذبح إلهي

تختفي الطبيعة العاقلة الخالدة في جسدنا البالي، وتوحي بكل أفعالها فيه وخلاله.

وهكذا إذ لكم هذا الجسد الذي صار مذبحًا يُقدم عليه البخور، لذلك ضعوا عليه كل أفكاركم ومشوراتكم الشريرة قدام وجه الرب، رافعين عقولكم وقلوبكم إليه، متوسلين أن يرسل ناره المقدسة لتحرق كل ما هو على هذا المذبح وتنقيه، فيخافكم خصومكم (الشياطين والخطايا) – كهنة البعل – ويهلكون على أيديكم، كما حدث مع إيليا النبي (١ مل ١٨:٢٥ – الخ) حينئذٍ تشاهدون المعزي القدوس في الماء الإلهي (المعمودية) الذي يمطر عليكم مطرًا روحيًا[١].

(رسالة ٦)

٣٤

أسلحة عدو الخير

سقط الشيطان من رتبته السماوية بسبب كبريائه، لهذا فإنه يعمل كل جهده دومًا لكي يسقط كل الراغبين في التقدم نحو الله بكل قلوبهم، مستعينًا بنفس الوسيلة التي سقط بها هو، أعنى العظمة ومحبة المجد الباطل. بهذا وما يشبهه يحاربنا على رجاء أن يبعدنا عن الله.

أضف إلى ذلك، أنه إذ يعلم أن كل من يحب أخاه فهو محب لله، لذلك يبث في قلوبنا الكراهية نحو اخوتنا، حتى لا يطيق الإنسان أحيانا أن يرى أخاه أو حتى يتكلم معه بكلمة.

حقًا جاهد كثيرون في الفضيلة جهادًا عظيمًا، لكن بغبائهم (عدم التمييز) أهلكوا أنفسهم، وليس من العجيب أن يحدث هذا معكم... إذ وأنتم متكاسلون في العمل تحسبون أنكم قد نلتم الفضائل.

لقد سقطتم في هذا المرض الشيطاني (الذي يفوق إدراككم)، إذ وأنتم في الظلمة حسبتم أنكم اقتربتم إلى الله وفي النور.

ما الذي دفع ربنا يسوع المسيح أن يترك ثيابه ويشد وسطه بمنطقة ويصب ماء في وعاء ويغسل أقدام من هم دونه (يو ١٣:٤ الخ) إلا لكي يعلمنا التواضع؟!

لقد أظهر لنا التواضع بالمثال الذي صنعه. لذلك فإن الذين يريدون أن يعودوا إلى رتبتهم الأولى، لن يمكنهم هذا إلا بالتواضع. لأن الكبرياء هو سبب السقوط في البداية من السماء.

وهكذا فإن من ينقصه التواضع العميق من كل القلب والفكر والروح والجسد، لا يرث ملكوت الله.

(رسالة ٦)

٣٩

مخافة الرب

إن أراد أحد أن ينال حب الله، فليكن فيه مخافة الرب، لأن الخوف يولِّد بكاء، والبكاء يولد قوة. وإذا ما كملت هذه كلها في النفس، تبدأ النفس تثمر في كل شيء. وإذ يرى الله في النفس هذه الثمار الحسنة، فإنه

[١] هنا يقارن القديس أنطونيوس الكبير بين المعمودية وهزيمة الشيطان بحادثة قتل كهنة البعل الوثنيين..

يشتمها رائحة بخور طيبة، ويفرح بها هو وملائكته، ويشبعها بالفرح، ويحفظها في كل طرقها حتى تصل إلى موضع راحتها دون أن يصيبها ضرر.

إذ يرى الشيطان الحارس العلوي العظيم يحيط بالنفس، يخاف أن يقترب منها أو يهاجمها بسبب هذه القوة العظيمة.

إذًا، اقتنوا هذه القوة حتى ترتعب الشياطين أمامكم، وتصير أعمالكم سهلة، وتتلذذوا بالعمل الإلهي، لأن حلاوة حب الله أشهي من العسل.

حقًا أن كثيرين من الرهبان والعذارى في المجامع، لم يتذوقوا هذه الحلاوة الإلهية، ولم يقتنوا القوة الإلهية، ظانين أنهم قد نالوها، بالرغم من عدم جهادهم. أما من يجاهد لأجلها فينالها حتمًا خلال المراحم الإلهية، لأن الله لا يحابى الوجوه.

فمن يريد أن يكون له نور الله وقوته، يلزمه أن يستهين بكرامات هذا العالم ودنسه، ويبغض كل أمور العالم ولذة الجسد، وينقى قلبه من كل الأفكار الرديئة. ويقدم لله أصوام ودموعًا ليلاً ونهارًا بلا هوادة كصلوات نقية، عندئذٍ يفيض الله عليه بتلك القوة.

اجتهدوا أن تنالوا هذه القوة، فتصنعوا كل أعمالكم بسهولة وُيسر، وتصير لكم دالة عظيمة قدام الله، ويهبكم كل ما تطلبونه.

(رسالة ٩)

٤١

روح التمييز والإفراز

صلوا لكي يهبكم الله نعمة الإدراك السليم في كل الأمور، فتقدروا أن تميزوا بين الخير والشر تمييزًا حسنًا.

لقد كتب الرسول بولس "وأما الطعام القوى فللبالغين" عب ١٤:٥. هؤلاء الذين بواسطة العمل المتواصل والجهاد" تُدرَّب حواسهم وميولهم على التمييز بين الخير والشر، وقد أحصوا كأبناء الملكوت وصاروا من عداد أبناء الله، هؤلاء يعطيهم الله الحكمة والتمييز الحسن في كل أعمالهم، فلا يقدر إنسان أو شيطان أن يخدعهم.

فالعدو يحارب المؤمنين تحت صورة الخير، وينجح في خداع كثيرين، هؤلاء الذين ليس لهم حكمة ولا تمييز حسن. لهذا علّم الرسول بولس عن غنى الفهم الذي لا حد لعظمته، المخصص للمؤمنين، إذ كتب إلى أهل أفسس يقول: "كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه مع القديسين" أف ١٧:١،١٨. كاتبًا هذا بدافع حبه العظيم المتزايد نحوهم، ولعلمه أنهم إن اقتنوا الفهم لا يعود يكون بالنسبة لهم شيء فيه صعوبة، ولا يمسهم خوف، بل يعزيهم فرح الرب نهارًا وليلاً، وتصير الأعمال بالنسبة لهم عذبة في كل حين.

حقًا إن كثيرين من الرهبان والعذارى في المجمع لم يقتنوا الفهم بهذه الدرجة، وأما أنتم فإن أردتم أن تحصلوا عليه بهذا المقدار الذي فيه كمال، فاهربوا من أولئك الذين يحملون اسم "رهبان وبتوليين" دون أن يكون لهم الإدراك الحقيقي والتمييز الحسن. لأنكم إن اختلطتم بهم، لن يدعوكم تتقدمون، بل وربما يطفئون حرارة غيرتكم، إذ لا حرارة لهم، بل برودة، وهم يسيرون وراء أهوائهم. فإن أتوا إليكم وتحدثوا معكم في أمورٍ أرضيةٍ

حسب أهوائهم الخاصة، لا تستكينوا لهذا، إذ كتب الرسول بولس: "لا تطفئوا الروح، لا تحتقروا النبوات" (١ تس ١٩:٥)، عالمين أنه لا شيء يطفئ الروح أكثر من الكلام الباطل.

(رسالة ١٦)

٤٢

العذوبة السماوية

لكل الخليقة الناطقة – الرجال والنساء – ينبوع حب، به تقدر أن تحتضن كلاً من الإلهيات والجسديات. فرجال الله يحبون ما يخص الله، وأبناء الجسد يحبون ما يخص الجسد.

الذين يحبون الإلهيات ينقّون قلوبهم من النجاسات ومن كل أعمال (ارتباكات) هذا الدهر الزائل، فيبغضون العالم (أي ليس للأمور الزمنية مكان في القلب) وينكرون أنفسهم ويحملون الصليب تابعين الرب، وسالكين حسب إرادة الله في كل شيء. لذلك يسكن الله فيهم معطيًا إياهم فرحًا وعذوبة يغذيان النفس ويقوتانها ويجعلانها تنمو. فكما أن الأشجار لا تقدر أن تنمو بدون ماء طبيعي، هكذا النفس أيضًا لا تنمو ما لم يكن لها عذوبة سمائية، أي تقبل الروح القدس (يعمل فيها) وتروى بالعذوبة السمائية.

(الرسالة ١٣)

٤٧

لنكن أبناء نور

إذا ما مات سلطان الخطية في إنسان ما يطهر الله نفسه مع جسده. ولكن إن كانت مملكة الخطية لازالت قائمة في جسده، فإنه لا يقدر أن يعاين الله، لأن نفسه التي في جسده (المظلم بالخطية) لا يوجد فيها مكان للنور لكي تعاين الله.

يقول داود "بنورك يا رب نعاين النور". ما هو هذا النور الذي به نعاين النور؟ إنه ذاك الذي تحدث عنه ربنا يسوع المسيح في الأناجيل قائلاً: "إن كان جسدك كله نيرًا ليس فيه جزء مظلم يكون نيرًا كله" لو ٣٦:١١، كذلك يقول "ليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له" مت ٢٧:١١. والابن لا يعلن عن أبيه لأبناء الظلمة بل لأبناء النور السالكين في النور، الذين استضاءت عيون قلوبهم بمعرفة الوصايا.

(رسالة ١٧)

٤٩

مراحل نمو النفس

كما أن كمال الجسد – والنفس حالة فيه – ينمو في مراحل ثلاث: الشبوبية والنضوج والشيخوخة؛ هكذا أيضًا النفس – وهي مختفية في الجسد – تنمو في مراحل ثلاث هي: بداية الإيمان، التقدم فيه، الكمال.

في البداية عندما يبدأ الإنسان في الإيمان، يولد في المسيح كما هو مكتوب في الأناجيل. وقد أعطانا القديس يوحنا الرسول علامات هذا الميلاد الجديد، كما قدم لنا الحالة الوسطى وحالة الكمال، فقال "أكتب إليكم أيها الأولاد... أكتب إليكم أيها الآباء... أكتب إليكم أيها الأحداث" ١ يو ١٢:٢-١٤. وهو لم يكتب هذا

لأصدقائه حسب الجسد بل للمؤمنين، راسمًا لهم المراحل الثلاث التي يعبر خلالها أولئك الذين يطلبون دائرة الروح وينالون الكمال ويُمنحون ملء النعمة.

(رسالة ١٧)

٥١

حياة السكون

كل من يريد أن يكون إنسانًا روحيًا[١]، يلزمه أن يجتهد في الابتعاد عن اضطرابات الجماهير وشركتهم، حتى يكون بعيدًا عن دوامة الناس وشغبهم جسديًا وقلبيًا وذهنيًا، لأنه حيثما وُجدت الجماهير يوجد الصخب.

قدم لنا ربنا مثالاً للاعتزال عن البشر والوحدة، إذ اعتاد أن يذهب بمفرده إلى الجبل ليصلى. كذلك انتصر على الشيطان في البرية، إذ تجاسر الشيطان ليصارعه مع أنه لم يكن (الرب) عاجزًا عن قهره حتى بين الجموع، لكنه صنع هذا ليعلمنا أنه في السكون والوحدة يمكننا أن ننتصر على العدو ونبلغ الكمال بسهولة.

لم يُظهر الرب مجده لتلاميذه وسط البشر، بل قادهم إلى الجبل وهناك كشف لهم مجده.

أيضًا سكن يوحنا السابق في البرية إلى يوم ظهوره...

ففي العالم يسهل على العدو أن يضايقنا بأسلحته الخفية والظاهرة، متخذًا بعض الناس المطيعين له كمساعدين له في إثارة الحرب ضد المؤمن. فيمكنه أن يستخدم بعض النسوة قليلات الحياء كسلاح قوى ضد المؤمن ناشرًا شباكهن الخادعة على نطاق واسع.

عندما رأي حزقيال الأربعة مخلوقات ذات الأربعة وجوه يعطون الرب مجدًا، لم يكن ذلك في مدينة أو قرية بل خارجًا في حقل، إذ قال الله له: "قم أخرج إلى البقعة وهناك أكلمك" حز ٣:٢٢.

ولما عرف النبي إرميا أن الانفراد يرضى الله جدًا، قال أيضًا: "جيد للرجل أن يحمل النير منذ صباه، يجلس وحده ويسكت" مرا ٣:٢٧، ٢٨.

مرة أخرى إذ عرف أضرار كثرة الحديث البشرى بالنسبة لمن يرغبون في إرضاء الله، لم يقدر أن يكف عن ترديد: "يا ليت في البرية مبيت مسافرين فأترك شعبى وأنطلق من عندهم" إر ٩:٢.

وأيضًا عندما أخذ إيليا النبي طعامًا من الملائكة لم يكن وسط جمهرة الجموع ولا في مدينة أو قرية، بل في البرية.

كتبت كل هذه الأمور وما على شاكلتها التي حدثت مع القديسين، حتى نتشبه بأولئك الذين أحبوا العزلة، إذ من شأنها تسهيل الوصول إلى الله.

اجتهدوا إذًا أن تكونوا مؤسسين على السكون تأسيسًا صالحًا، حتى ننقاد إلى رؤية الله، أي التأمل الروحي العظيم.

(رسالة ١٧)

٥٢

[١] خاص بالرهبان، أما العلمانيون فيمكن أن يفهموه على فترات الخلوة وليس على طول حياتهم.

بالنيران الإلهية نحلق في السماويات

أريد أن أخبركم: ماذا تشبه النفس عندما تقطن النار الإلهية فيها. إنها تشبه طائرًا ذا جناحين يحلق في العلاء في جو السماء. فالطير هو الوحيد من بين المخلوقات له أجنحة، إذ هذا من ملامحها الخاصة. هكذا النفس المطيعة لله بأجنحتها هي قفزات النار الإلهية التي تعطيها القوة لكي ترتفع إلى السماء. فإن نزعت عنها الأجنحة لا تعود تقدر على الطيران.

علاوة على هذا فإن نفس الإنسان تشبه الطائر أيضًا، من حيث أن الحرارة (الدفء) هو سر وجودها في الحياة. فبدون تدفئة البيض لا يخرج الفرخ الحي ... هكذا أيضًا بالنسبة للنفس، إذ يحيط الله بها، يدفئها مطيعة هي له، فتخرج إلى الحياة الروحية.

وإذ نتحقق أن النفس المطيعة لله، والملتصقة به، هي أشبه بالطائر الذي تكمن حياته في الدفء، لهذا ليتكم لا تنفصلون قط عن هذه النار.

هذه النار يقدمها الله لكم، وبسببها يشن الشيطان هجمات كثيرة لكي يحرمكم منها، إذ هو يعلم أنه لا غلبة له عليكم مادامت هذه النار (عاملة) فيكم.

(رسالة ١٨)

٥٣

مقاومة عدو الخير وخداعاته

قاوموا الشيطان، واجتهدوا أن تعرفوا خداعاته، فقد اعتاد أن يخفي المرارة وراء مظهر العذوبة حتى لا تنكشف، مقدمًا أوهامًا تبدو لناظريها جميلة، غير أن حقيقتها تختلف عن مظهرها. هذا كله يفعله لكي يخدع القلوب بدهائه المتشبه بالحق وله جاذبيته.

يوجه الشيطان كل جهوده لهذا الهدف، مقاومًا كل النفوس المتعبدة لله حسنًا، بجميع الطرق الممكنة. وما أكثر أنواع الشهوات التي يبثها في النفس لعله يطفئ النار الإلهية، مستعينًا بالقصور الذاتي للجسد وكل ما يتعلق به.

عندما يرى البعض متحفظين منه، لا يقبلون منه شيئًا، ولا يسمعون له في شيء، يُولّى عنهم في خزي. عندئذٍ يعطيهم روح الله راحة ويجعل لهم لذة في كل عمل، يصير حمل نير الرب حلوًا، كما هو مكتوب في الإنجيل: "فتجدوا راحة لنفوسكم" مت ١١:٢٩. رغم قبولهم النير وحملهم إياه لا يعودون يكلّون من التدريب في الفضيلة أو القيام بالخدمة والسهر الليلي، ولا يشعرون بالغضب من جهة أي مضايقة بشرية، ولا يخافون إنسانًا أو حيوانًا مفترسًا أو روحًا شريرًا، لأن فرح الرب يستقر فيهم نهارًا وليلاً، معطيًا الحياة لعقولهم، فيكون الفرح طعامهم، وبه تنمو نفوسهم وتقترب من كل شيء ومن كل كمال، وبه ترتفع إلى السماء.

(رسالة ١٨)

٥٤

الحاجة إلى مشورة روحية

إننا نرى الطفل في نموه يأخذ في البداية لبن أمه، بعد ذلك يأخذ بعض الأطعمة الأخرى، وأخيرًا يأخذ كل صنوف الأطعمة التي يأكلها البشر، هكذا ينمو الإنسان حتى يصير قويًا ناضجًا قادرًا على مقاومة الأعداء

(الأمراض) ببسالة... ولكن أن أصابه مرض في طفولته، حرمه من طعامه وأنهك قوته، ينشأ ضعيفًا، ويغلبه أي عدو.. ولكي يهزم عدوه (المرض) يجب عليه أن يستعيد صحته طالبًا القوة، وذلك باعتناء أحد الأطباء المختبرين به.

هكذا أيضًا بالنسبة للنفس البشرية، متى فقدت فرحها الإلهي تصير مريضة وتعانى من جراحات كثيرة. فإن اجتهدت في طلب إنسان– خادم الله – مختبر في الطب الروحي، وتمسكت به، فإنه يشفيها من الآلام ويقيمها ويعلمها أن تحصل على ذلك الفرح الذي هو طعامها بواسطة العون الإلهي، عندئذٍ تقدر أن تقاوم أعداءها الذين هم الأرواح الشريرة، وتقهرهم وتطأ مشوراتهم تحت قدميها، وتمتلئ بملء الفرح الكامل.

(رسالة ١٨)

٥٥

اعرفوا مشورات الشرير، فإن جاءكم في زيّ من يعلم بالحق لكي يخدعكم ويقودكم بمكر، أو جاءكم كملاك نور، فلا تصدقوه ولا تطيعوه، لأنه يفتن المؤمنين بمظاهر مغرية لها صورة الحق.

ولا يعرف غير الكاملين حيل الشيطان وما يبثه فيهم دائمًا. أما الكاملون فيعرفونها، إذ يقول الرسول: "وأما الطعام القوى فللبالغين الذين بسبب التمرّن قد صارت لهم الحواس مدرَّبة على التمييز بين الخير والشر" عب ١٤:٥. أمثال هؤلاء يعجز عن أن يخدعهم. إنما يفتن... أولئك الذين لا يسهرون على أنفسهم، فيصطادهم بطُعم يبدو لهم حلوًا. وذلك كصيَّاد السمك الذي يخفي صنارته فيُ طعمٍ حتى يصطاد السمك. وكما يقول سليمان الحكيم: "توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت" أم ٢٥:١٦.

هذا يحدث معهم بسبب اتكالهم على ذواتهم، إذ يتبعون دومًا ميول قلوبهم، ويحققون أهواءهم الخاصة، ولا ينصتون إلى آبائهم ولا يطلبون مشوراتهم.

هكذا يُظهر لهم الشيطان رؤى وتصورات خادعة، نافخًا قلوبهم بالكبرياء.. وأحيانا يرسل لهم أحلامًا في الليل تتحقق في النهار، حتى يسقطون في حيرة عظيمة، بل وعلاوة على هذا يُظهر لهم في الليل نورًا يضيء المكان الذين هم فيه، ويصنع لهم أمورًا أخرى كثيرة خاطئة وعلامات... كل هذا لكي تطيب له قلوبهم فيقبلونه كملاك. وبقدر ما يقبلونه، يقذف بهم من علوهم إلى أسفل، بواسطة روح الكبرياء الذي تسلط عليهم. ويجعلهم يحسبون أنفسهم عظماء وأجلاء روحيًا أكثر من غير هم، وأنهم ليسوا بمحتاجين إلى آبائهم أو الإنصات إليهم.

هكذا يتم فيهم قول الكتاب المقدس إنهم عناقيد عنب حقيقية زاهرة لكنهاُ مرة وغير ناضجة. فقد صارت تعاليم آبائهم بالنسبة لهم صعبة، إذ يحسبون أنهم عارفون بكل شيء.

(رسالة ١٨)

٥٧

محبتنا لله

أني أخبركم عن عمل، به وحده يصير الإنسان ثابتًا في الصلاح من البداية حتى النهاية، وهو أن تحبوا الله من كل نفوسكم وقلوبكم وأفكاركم وأن تصنعوا كل شيء لأجله وحده، فيعطيكم الله قوة عظيمة وفرحًا وتصير كل الأعمال الصالحة حلوة كالعسل، وكل أتعاب الجسد والهذيذ والأسهار وكل نير الرب يصير حلوًا وهينًا.

على أي الأحوال، فإن الرب من أجل محبته للبشر، يرسل لهم أحيانا ضيقات حتى لا يتكبروا بل يكملوا مجاهدين، وعوض الشجاعة يشعرهم بالثقل والضعف، وعوض الفرح يشعرون بالحزن، وعوض السلام والهدوء يشعرون بالهياج، وبدلاً من الحلاوة يشعرون بالمرارة، وما على شاكلة هذا.

هذا يحدث بالنسبة للذين يحبون الله. لكن بالجهاد والغلبة يصيرون شيئًا فشيئًا أقوياء، وأخيرًا إذ ينتصرون، لأن الروح القدس يكون معهم في كل شيء، ولا يعودون يخافون شيئًا رديئًا.

(رسالة ١٨)

٦٠

الوصايا الإلهية

وصايا الله هي : النقاوة، السلام الدائم غير المتغير، الامتلاء بالرحمة، وغير ذلك من الفضائل الجميلة المتوَّجة بالتَّطويب.

جاهدوا أن تنفذوا وصايا الروح، التي تهب حياة لنفوسكم، وبها تتقبلون الله في نفوسكم. إنها الطريق الأمين...

فبدون نقاوة القلب والجسد، لا يقدر أحد أن يكون كاملاً أمام الله، إذ مكتوب في الإنجيل: "طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" مت ٨:٥.

فالكمال مصدره نقاوة القلب. إذ القلب هو مركز الخير الطبيعي والشر غير الطبيعي. والشر هو مصدر آلام النفس من ذمٍ وبغضةٍ ومجدٍ باطل وما أشبهه. أما الخير فيولد معرفة الله والقداسة ونقاوة النفس من كل الآلام.

فإن سعى الإنسان في إصلاح طريقه، وبدأ يهرب من الشر متسلحًا بالجهاد: من بكاءٍ وانسحاق قلب وأصوام وأسهار وفقر (اختياري) وصلوات كثيرة؛ فان الرب يساعده بنعمته ويحرره أيضًا من كل آلام النفس.

كثيرون أقاموا زمانًا طويلاً وهم رهبان وعذارى، ولم يتعلموا كيف يقتنوا النقاوة. وذلك لأنهم يزدرون بتعليم آبائهم ويتبعون أهواء قلوبهم الخاصة. لذلك تسلّطت عليهم الأرواح الشريرة المهلكة للنفوس، وتجرحهم ليلاً ونهارًا بأسهمها غير المنظورة، ولا تعطيهم سلامًا في أي موضع، بل يشغلون قلوبهم تارة بالكبرياء وأخرى بالمجد الباطل والغيرة الشريرة والذم والغضب والحنق والمشاحنات وكثير من الآلام الأخرى. هؤلاء نصيبهم مع الخمس عذارى الجاهلات، إذ أجازوا زمانهم بجهلٍ، ولم يلجموا ألسنتهم، ولا حفظوا أعينهم نقية، ولا حفظوا أجسادهم من الشهوات أو قلوبهم من النجاسات وغيرها.

هؤلاء يُرثى لهم بسبب نجاساتهم، إذ هم مكتفون بالثوب الكتاني الذي هو زي البتولية، ولكنهم محرمون من الزيت السماوي الذي يضيء مصابيحهم، لذلك لا يفتح لهم العريس يومًا ما أبواب حجاله، بل يقول لهم ما يقوله للعذارى الجاهلات: "الحق أقول لكنَّ إنى ما أعرفكن" مت ١٢:٢٥.

وإني أكتب هذا لأني أتوق إلى خلاصكم، حتى تكونوا أحرارًا، وأمناء وعروسًا طاهرة للمسيح عريس النفوس، كقول الرسول بولس "خطبتكم لرجلٍ واحدٍ لأقدّم عذراء عفيفة للمسيح" ٢ كو ٢:١١.

(رسالة ٢٠)

٦٤

اليقظة الروحية

إذًا، فلنستيقظ من النوم ونحن بعد في الجسد، ولنتأوه على أنفسنا، ونحزن عليها من كل قلوبنا نهارًا وليلاً حتى نخلص من العذاب المرعب والتنهد والبكاء والغم الأبدي.

ليتنا ندرك أن الباب رحب، وأن الطريق المؤدى إلى الهلاك سهل وكثيرون يدخلون منه، فندخل من الباب الضيق والطريق الكرب المؤدى إلى الحياة، الذي يدخل منه قليلون.

فمن يدخل في الطريق الأخير، هو عامل حقيقي، ينال جزاء عمله بفرح ويرث الملكوت.

وإنني أتوسل إلى الذين لم يقتربوا بعد من هذا الطريق ألا يهملوا طالما يوجد وقت، لئلا في ساعة الحاجة يجدون أنفسهم بلا زيت، ولا يقبل أحد أن يبيع لهم زيتًا. هذا ما حدث مع الخمس عذارى الجاهلات اللواتي لم يجدن من يشترين منه زيتًا، عندئذٍ صرخن باكيات قائلات "يا سيد يا سيد افتح لنا، فأجاب وقال الحق أقول لكن إني ما أعرفكن" مت ١١:٢٥،١٢. هذا حدث لهن ليس إلا بسبب الكسل. لقد استيقظن في النهاية وبدأن يعملن، لكن بلا جدوى، لأن سيد البيت دخل وأغلق الباب كما هو مكتوب.

(رسالة ٢٠)

الأب مرقس الناسك

ملاحظة

استعنت ببعض عبارات أحد الآباء الرهبان في ترجمته لبعض نصوص أقوال هذا الأب، الواردة في مجلة مدارس الأحد السنة ١٢.

القديس مرقس الناسك

يُعتبر القديس مرقس الناسك من مشاهير الآباء المصريين الأمجاد. وبالرغم من إننا لا نعرف عن ظروف حياته إلا القليل، غير أن بالاديوس[١] الذي حظي بمقابلته شخصيًا يصف هدوءه ووداعته بأنهما فائقان لا يُقارنا. وأنه كان منذ حداثته مولعًا بدراسة الأسفار المقدسة، حتى أنه حفظ منذ حداثته العهدين القديم والجديد عن ظهر قلب[٢].

وقد ارتفع إلى درجة عالية من الكمال الروحي، باستقامة حياته مع نقاوة قلبه. وقد شهد له القديس مقاريوس السكندري، إذ رأي في رؤيا خاصة أثناء التناول شهادة من النعمة الإلهية توضح عظم إيمان القديس مرقس الناسك ومدى اتقاد محبته للرب وتواضعه الشديد.

يقول القديس بالاديوس: أخبرني مقاريوس الطوباوي هذا إذ كان كاهنًا، "لاحظت أثناء توزيع الأسرار إنني لم أعطِ قط الأسرار لمرقس الناسك، بل بالأحرى كان ملاك يقدمه له من المذبح. لاحظت فقط رسغ يد الكاهن الخادم".]

عاش القديس مرقس أكثر من مائة عام، ويرجح أنه رقد في بداية القرن الخامس تقريبًا. غير أنه قد رأي الرعيل الأول الذي أخذ نموذج حياته وتعاليمه عن القديس أنطونيوس، ويحتمل أن يكون قد قابل القديس أنطونيوس نفسه.

وقد أكسبته النعمة الإلهية وخبرة الحياة ودراسة كلمة الله معرفة زاخرة بأسرار الحياة الروحية، فلم يُخف هذه الموهبة بل علَّم وكتب الكثير، إلا أن ما وصل إلينا من كتاباته قليل.

---

[١] Palladius: Lausiac History, ١٨:٢٥.

[٢] شهد بذلك سوزومين في كتابه: تاريخ الكنيسة، مجلد ٦، فصل ٢٩.

١. رسالة إلى الراهب نيقولاس

الابن الحبيب نيقولاس...

١٠

طلب المشورة

من يريد أن يحمل صليبه ويتبع المسيح، يلزمه قبل كل شيء أن يجاهد في سبيل المعرفة والفهم، وأن يفحص أفكاره دائمًا، مهتمًا كل الاهتمام لكي يربح الخلاص ويثبت في الله بكل قدراته. كما يجب عليه أيضًا أن يتباحث مع خدام الله، الذين لهم نفس الفكر ونفس الروح ويقومون بنفس العمل، حتى يعرف كيف وأين يوجه خطواته، فلا يسير في الظلمة من غير مصباح منير.

لأن الإنسان الذي يتكل على ذاته بدون معرفة، وبغير قيادة الإنجيل غالبًا ما يتعثر ويسقط في مهاوي وشباك كثيرة للعدو (الشيطان)، وكثيرًا ما يضل، ويتعرض لمصاعب متعددة، ولا يدرى ما تؤول إليه حالته في النهاية.

كثيرون، صارت لهم مهارة عظيمة في إماتة الذات، وبذلوا جهدًا عظيمًا لأجل الله، ولكن لأن مشيئتهم كان يعوزها التمييز الصائب، ولأنهم لم يعتبروا مشورة النصح حقيقة لازمة، ولا طلبوها من اخوتهم، لذلك صار جهادهم باطلاً وبلا أدنى فائدة.

٢٢

الاهتمام بكلمة الله

وأما أنت يا ابني، فإنُ رمت أن تدرك مصباح نورك العقلي والمعرفة الروحية وتقتنيه في داخلك، حتى تسير به دون أن تتعثر في الظلمة الحالكة لليل هذا العمر، ويرتب لك الرب خطواتك (مز ١١٨:١٣٣) كقول النبي يلزمك أن تتوق إلى طريق الكتب المقدسة بشغفٍ، حتى تمارس أكمل وصايا الإنجيل بغيرة إيمان، وتشترك في آلام المسيح برغبة وصلاة.

وها أنا أريك طريقًا عجيبًا، به تحقق قصدك، طريقًا لا يقوم على عمل جسدي أو مجهود خارجي، وإنما يتعلق بحالة النفس الداخلية محتملاً مشقة جهاد النفس، مع ضبط العقل وسيطرته (على كل ما يدور فيه)، وأن يكون الفكر متيقظًا، مع خوف الله وحبه.

بهذا تستطيع بسهولة أن تلتفت وتحارب فرق أعدائك، كما صنع داود النبي، الذي بعد ما ذبح جبارًا غريبًا واحدًا (جليات) بإيمان وثقة في الله، عاد وطارد فرق أعدائه مع أتباعهم.

٢٣

معركة روحية

ها أنا أحدثك عن ثلاثة جبابرة غرباء أشدَّاء، يُعوِّل العدو عليهم في تشكيل وعمل قواته العقلية المضادة لنا. فإذا أفلحت في طرحهم وقتلهم ينتهي مصير كل قوات الشر حتمًا بالهزيمة.

هؤلاء الجبابرة الثلاثة الذين هم من صنع الشرير، ويبدو كما لو أنهم ذوو بأس هم:

١. **الجهل**، وهو أصل (أم) كل الشرور.

٢. **النسيان**، أخ الجهل المساعد والمعضد له.

٣. **الكسل** (الاستهتار)، وهو يحيك من الظلمة رداءً وغطاءً يطمس به النفس.. والكسل يشدد الاثنين الأولين وبعضدهما، ويهيئ لهما الأسباب حتى يجعل الشر يتأصل في النفس المهملة تأصلاً قويًا، إلى أن يصير جزءً من كيانها.

وعن طريق الكسل (الاستهتار) والنسيان والجهل، تنمو دعائم كل الشهوات الأخرى وتتقوى. ويسند هؤلاء الثلاثة كل منهما الآخر، إذ لا يمكن لأحدهم أن يقوم بدون الآخر.

هؤلاء الثلاثة (مجتمعين معًا) يشكلون للعدو قوة لا يُستهان بها، كما أنهم أعوان رئيسية للشر، بواسطتهم تنصب فرق الأرواح الشريرة شباكها داخل النفس وتنجح في كل تدابيرها.

٢٤

فإذا طلبت النصرة على الشهوات وطرد القوات الغريبة المحاربة للعقل بسهولة، اجمع نفسك في داخلك بمساعدة الله عن طريق الصلاة، وتعمق في أغوار قلبك لتواجه هناك جبابرة الشيطان الثلاثة: أعنى الكسل (أو الاستهتار) والنسيان والجهل. هؤلاء الثلاثة هم الطعام الذي تتقوت عليه كل الشهوات المرذولة وتنمو وتتأصل في القلوب المتراخية والنفوس العاطلة عن التأديب.

وعن طريق الانتباه الدقيق إلى نفسك ويقظة العقل وبالعون السماوي تستطيع حتمًا أن تتكشف هذه الشهوات الشريرة، التي يجهلها البعض وربما لا يتوقعونها، مع أنها أكثر الشهوات خبثًا وعنادًا، وان كانت أسلحة البر المضادة لها كفيلة بفضحها.

هذه الأسلحة المضادة لها هي[١]:

١. المعرفة المستنيرة، التي تحفظ النفس في يقظة العقل، وتشددها لتبدد من أمامها ظلمات الجهل.

٢. انشغال الفكر في الأمور الصالحة، ويُعتبر هذا مصدر بركات النفس.

٣. غيرة حية توقظ النفس وتقودها للخلاص.

فإذا تسلحت النفس بهذه الأسلحة الثلاثة، مع الصلاة والطلبة، تقدر بمعونة الروح القدس أن تغلب هؤلاء الجبابرة الثلاثة الغرباء الذين يقبلون بالعقل، (وتسحقهم) ببسالة وإقدام.

بمعنى أنه بواسطة "المعرفة الإلهية المستنيرة" تُهزم ظلمة الجهل الخبيث.

وبواسطة "انشغال الفكر في الأمور الصالحة"، "في كل ما هو حق، كل ما هو جليل، كل ما هو عادل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مُسرّ، كل ما صيته حسن. إن كانت فضيلة وإن كان مدح" في ٨:٤، بهذا تستطيع أن تبدد النسيان المفسد.

وبواسطة "الغيرة الروحية المتهيئة لكل عمل صالح"، تطرد الكسل (أو الاستهتار).

---

[١] قمت بتغيير بسيط في ترتيب النص حتى تكون الأسلحة في ترتيبها متناسقة مع ترتيب الأعداء الثلاثة السابق ذكرهم.

وهذه الفضائل (الثلاث)، لا تكتسبها بإرادتك الذاتية وحدها، وإنما بقوة الله ومعونة الروح القدس، مع الحذر الدائم والاهتمام بالصلاة.

فإن اقتنيت هذه الفضائل، عندئذٍ تقدر أن تقطع كل علاقة بجبابرة العدو الثلاثة الأشداء. لأن قوة النعمة العاملة في نفسك تُكوّن هذا (الثالوث) المتناسق، أي المعرفة الحقة، وتذكر كلمة الله، والغيرة المقدسة، كما تحفظ (هذا الثالوث) فيك بعناية، وبالتالي يتبدد في داخل نفسك كل من الجهل والنسيان والإهمال (أو النسيان)، إذ توهن قوتهم وتزيلها، وأخيرًا تملك في النفس نعمة ربنا يسوع المسيح الذي له القوة والمجد إلى أبد الآبدين. آمين.

القديس مرقس الناسك

٢. توجيهات منتخبة عن أحاديثه الأخرى

١

العماد بدء الطريق

يقتضينا الإيمان ليس فقط أن نعتمد للمسيح، بل يطلب منا أيضًا تنفيذ الوصايا. فالعماد المقدس عمل كامل ويهبنا الكمال، إلا أنه لا يُكمل إنسانا يُهمل(١) في تنفيذ الوصايا.

٣

ويتوجه الإنسان بإرادته حيثما يحب، حتى بعد المعمودية، إذ لا تسلبنا المعمودية حريتنا.

فعندما يقول الكتاب المقدس "ملكوت السماوات يُغتصب" (مت ١٢:١١)، إنما يتكلم عن **الإرادة الخاصة بكل شخص**، حتى لا يعود يلتفت كل منا – بعد ما تعمد – إلى الشر، وإنما يثبت في الخير.

والذين نالوا قوة لتنفيذ الوصايا، يوصيهم الرب كمؤمنين أن يجاهدوا فيها حتى لا يرتدوا عنها.

٤

التدريب الروحي والوصية

التدريب الروحي ليس شيئًا منفصلاً عن الوصية، بل هو الوصية عينها.

أرني عملاً ليس هو وصية؟! فإن تكلمت عن الصلاة فهي وصية.

وإن تكلمت عن طرد الأفكار فهي وصية (كن وقورًا وساهرًا).

وإن تكلمت عن الصوم أو السهر... فهذه وصايا أيضًا.

وإن تكلمت عن إماتة الذات، فهي أيضًا وصية (انكر نفسك).

كل عمل من فضائل النسك يمكن أن يطرأ على ذهنك هو وصية.

٥

العماد والحرية الإنسانية

تهبنا المعمودية المقدسة حرية كاملة، ومع ذلك فإن للإنسان مطلق الحرية والإرادة، إما أن يُستعبد مرة أخرى برباطات شهوانية، أو يبقى حرًا في تنفيذ الوصايا.

فان التصق بالفكر إحدى الشهوات، فهذا من عمل إرادتنا الخاصة، وليس رغمًا عنا. إذ يقول الكتاب إنه قد أُعطى لنا سلطان "هادمين ظنونًا" ٢ كو ٥:١..

ويكون الفكر الشرير، بالنسبة لمن يهدمونه، علامة على حبهم لله وليس للخطية. **لأن وجود الفكر الشرير ليس فيه خطية، إنما تكمن الخطية في حديث العقل معه حديث ود وصداقة.**

إننا لسنا مُغرمين بالفكر الشرير، فلماذا نتباطأ نحن فيه؟ فما نبغضه من كل القلب، يستحيل أن تطيل قلوبنا الحديث معه، إلا إذا كانت لنا شركة خبيثة معه؟!

٦

بالعماد ننال قوة تنفيذ الوصية

إن كنا بعد المعمودية المقدسة، حيث نلنا قوة لتنفيذ الوصايا، لم نعمل بها، فإننا نُسلَّم بغير إرادتنا، إلى أن نستعطف مراحم الله بالتوبة، مجاهدين أن ننفذ كل الوصايا، حينئذٍ يُبطل الله الخطية من إرادتنا.

٧

لقد لبستم المسيح بالمعمودية (غل ٢٧:٣)، ونلتم قوة وسلطانا لهدم ظنون (٢ كو ٥:١٠). ولكن إذ نلتم هذه القوة للغلبة عليها، ومع ذلك لم تعملوا على هدمها منذ اللحظة الأولى التي تخطر الظنون فيها على بالكم فيكون من الواضح أنكم محبون للشهوات في عدم إيمان، حتى أنكم قبلتموها وتصادقتم معها. وبذلك تكونون مخطئين إذ تسلكون هكذا.

٨

احذر التعاطف مع الفكر الشرير

أحيانا يهاجمنا فجأة فكر شرير نحن نرذله، ويتسلل إلينا كلص بغير رضانا، ويأسر عقلنا بالقوة.

ولكن يجب علينا أن نعرف تمامًا أن حتى هذا الفكر منشأه هو فينا؛ لأنه إما أن يكون قد سبق خضوعنا له في الماضي – بعد العماد – دون أن نمارسه عمليًا؛ أو أننا نحتفظ في داخل نفوسنا وبرضانا ببعض بذور الشر، تلك التي تعطى للشرير قوة لكي يسكن فينا. وبالتالي لا يتركنا الشرير ما لم نرفض تلك البذور الشريرة التي في داخلنا والتي تعطيه سلطانًا علينا.

فبالنسبة للفكر الشرير الذي يبقى فينا خلال ارتكابنا الشر (ممارسته عمليًا) فان طرده متعلق بتقديمنا أعمالاً أمام الله تليق بالتوبة.

من هذا يتضح أنك مُدان حتى على الفكر اللا إرادي الذي يضايقك، لأن لك القدرة أن تطرده وتطهر عقلك منه منذ اللحظة الأولى التي ابتدأ يهادنك فيها، لكنك لا ترغب في أن تطرده بل تتماحك وتتجاذب معه برضاك، ولو أنك لا ترتكب فعله (عمليًا). (لكنه وجد فيك مكانًا دافئًا، كمن وجد صديقًا أو زميلاً قديمًا).

٩

عمل نعمة المعمودية

إذا شعرت في قلبك بمعونة آتية إليك، فاعلم يقينًا أن هذه النعمة لم تأتِ إليك من الخارج، بل هي النعمة المعطاة لك في المعمودية بالسرّ، قد صارت الآن عاملة فيك جزاء بغضك لفكر الشر وإعراضك عنه.

١١

كل خطية تسلمنا إلى أخرى

توجد علاقة وثيقة بين شهواتنا وأفكار الشر المضايقة لنا، وكأنما قد جمعتهما رباطات القربى الشريرة.

فكل فكر يتأصل في الإنسان الذي يرحب به، يسلمه إلى (الفكر) القريب التالي له، حتى أن **الإنسان الذي ينساق في عادةٍ ينحرف إلى الأخرى رغمًا عنه.**

من يقدر أن يهرب من الكبرياء إن كان مملوء مجدًا باطلاً؟!

كيف لا يستسلم للأفكار الدنسة، من ينام كفايته ويستسلم للملذات؟!

وكيف لا يُؤسر بالقسوة وعدم الرحمة من اختار الاغتصاب؟ وكيف يقدرون أن يهربوا من الثورة والغضب من يتلذذون بهذه جميعها؟!

١٢

السلوك حسب الجسد أو حسب الروح

حتى بعدما ننال نعمة، يكون لنا الخيار في أن نسلك حسب الجسد أو حسب الروح. غير أن السلوك حسب الروح مستحيل بالنسبة لمن يحب مديح الناس وراحة جسده، كذلك يستحيل السلوك حسب الجسد بالنسبة لمن يفضلون الدهر الآتي على الحياة الحاضرة من قلوبهم.

لذلك، يلزمنا أن نرذل مديح الناس وراحة الجسد، اللذين يتولد عنهما أفكار الشر، ولو بغير إرادتنا. كما يلزمنا أن نخاطب الرب بإخلاص "بغضًا تامًا أبغضتهم، صاروا لي أعداءً" مز ١٣٨:٢٢.

١٣

تهب المعمودية الذين يعتمدون في الكنيسة نعمة تسكن فيهم سرًا، وحينما يمارسون الوصايا ويتمسكون بالرجاء، تبدأ النعمة تكشف ذاتها لهم حسب كلمات الرب: "من آمن بي كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حيّ. (قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه)" يو ٣٩،٧:٣٨.

١٥

الحاجة إلى نعمة الروح القدس

هكذا فان أي مؤمن يحيا حسب الوصايا، وينجح في عمله الروحي، يجب عليه أن يؤمن بأنه سبق أن أُعطى له القدرة على ذلك، لأنه نال في المعمودية نعمة الروح القدس، الذي هو مصدر كل خير، ومصدر كل فضيلة ليس فقط الفضائل الداخلية والروحية بل والمنظورة أيضًا.

فليدرك كل إنسان فاضل أنه لا يقدر أن يصنع خيرًا من ذاته "لأن الرجل الصالح من كنز قلبه الصالح يُخرج الصالحات" مت ١٢:٣٥، وليس من ذاته. والكنز هنا يعني الروح القدس المخفي في قلوب المؤمنين.

١٧

المسيح عامل فينا!

الإنسان الذي يثق أنه نال المسيح مخفيًا في داخله بالمعمودية كقول الرسول يعرض عن كل أمور العالم ويضع في قلبه أن يحفظه بكل عناية فائقة (أم ٤:٢٣). "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرَّة[١]" في ٢:١٣. فقوله "من أجل المسرة" يكشف بها الرسول أن وجود مسرة في صنع الفضائل يتوقف على محض إرادتنا، لكن أن نمارس الفضائل أو نقلع عن الخطايا، بدون الله فهذا مستحيل!!

[١] جاءت في النص الإنجليزي **His good pleasure**.

وتحمل العبارة "بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئًا" يو ١٤:٥ نفس المعنى، ولكن لنا نصيب نساهم به في كل عمل.

١٨

يتقبل العقل (المستنير) من داخل الهيكل السري في القلب المشورات الصالحة المباركة من المسيح الساكن في الداخل. (وعندئذٍ) يخرجها إلى حيز التنفيذ بالسلوك في حياة الفضيلة، ثم يعود فيقدم (العمل الصالح) إلى المسيح الذي وهبه المشورة بواسطة الأفكار الصالحة.

١٩

عربون الحياة السماوية المُقامة

سعادة الأبرار التي ينالونها في القيامة هي في السماء. ولكن عربون هذه السعادة وباكورتها يظهر أثره الروحي من الآن في قلوب المؤمنين.

فإذ لنا شهادة عن المستقبل، يلزمنا أن نتخلى عن كل الحاضر ونحب الله حتى الموت. من أجل ذلك لا يقول الرسول: "ستأتون" بل قال: "قد أتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحيّ أورشليم السماوية" عب ١٢:٢٢.

صار لنا نحن جميعًا هذه الإمكانية بالمعمودية، لكن الذين ينالونها فعلاً هم الذين لهم إيمان راسخ، ويموتون كل يوم من أجل حب المسيح، أي الذين ارتفعوا فوق كل تفكير يخص الحياة الحاضرة، غير مفكرين سوى كيف يبلغون إلى كمال حب المسيح. والقديس بولس يطلب هذا فوق كل مطلب، قائلاً: "أسعى لعلي أدرك الذي لأجله أدركني أيضًا المسيح يسوع" في ٣:١٢، أي أن أحب المسيح كما أحبني هو.

ولما أدرك (بولس) هذا الحب الذي كان يسعى إليه، لم يعد يعبأ بفكر آخر: سواء يخص أحزان الجسد أو عجائب الخليقة، إنما هجر كل المنظورات قائلاً: "من سيفصلني عن محبة المسيح" رو ٨:٣٥. وهكذا لم يعد يرغب أن يفكر في شيء، سوى أن يستوطن هناك (في القلب، في حب المسيح).

٢٠

قال الرسول إن لنا في أنفسنا باكورة الروح (رو ٨:٢٣)، مظهرًا لنا مقدار طاقتنا، لأنه يتعذر علينا أن نحوز كمال فاعليه الروح اللهم إلا إذا بلغنا الكمال في (تنفيذ) الوصايا. كالشمس، التي هي كاملة وتبعث ضوءها كله مرة واحدة على الجميع بالتساوي، ولكن كل واحد يدرك من ضوءها قدر كفاءة بصره.

هكذا أيضًا الروح القدس يجعل الذين يؤمنون به قادرين أن يتقبلوا بالمعمودية كل قوته وعطاياه، غير أن عطاياه لا تعمل في الجميع بقدر واحد، إنما ينال كل واحد منها قدر ممارسته للوصايا، أي بالقدر الذي يشهد به بواسطة أعماله الصالحة، ويظهره شدة إيمانه بالمسيح.

٢١

هل للشيطان سلطان علينا؟

أفكار الشيطان هي مجرد تصور عقلي محض لشيء (أو عمل) شرير والذي يُمكِّنه من التملك علينا أو حتى مجرد الاقتراب إلى عقلنا هو ضعف إيماننا. لأننا بعدما تسلَّمنا الوصية لنطرح عنا كل الارتباكات ونحفظ

قلوبنا في يقظة كاملة (أم ٤:٢٣)، ونطلب ملكوت الله الذي هو في داخلنا، إذ تخلى العقل عن القلب وعن الغرض الذي نسعى إليه، بهذا أفسحنا المجال في الحال لتخيلات الشيطان، وصار العقل متساهلاً في قبول أي مشورة شريرة.

حتى إلى هذا الحد، ليس للشيطان أي سلطان أن يحرك أفكارنا وإلا ما كان يرحمنا بل كان يدس لنا كل أنواع الأفكار الشريرة ولا يسمح لنا بأي صلاح. إنما قدرته محصورة في مجرد تقديم مشورة كاذبة في بدء كل فكر، ليختبر أي جهة يميل إليها قلبنا: هل يميل إلى مشورته أم إلى مشورة الله؟ لأنهما نقيضان.

٢٢

هل للفكر الشرير سلطان علينا؟

حينما يستقر فكر مرذول... في داخلنا ويتأسس فينا، فهذا يرجع إلى أننا سبق أن قبلناه وليس راجع إلى حالة جديدة بلغناها.

ويمكننا أن نحصر هذا الفكر ليبقى وحده منعزلاً، فعدم إذعان القلب له يمنعه من أن يمتد لينتج أفكارًا أو شهوات أخرى. لأن الفكر الوحيد (العاري)، الذي يرذله إنسان ساهر على نفسه، ليس له سلطان أن يجذب إلى العقل أفكارًا أخرى. هذا لا يحدث إلا إذا كان في القلب ميل إليه.

من أجل ذلك، فإننا إذا قطعنا كل ميل (في العقل) نحو التصورات التي سبق أن قبلناها، حينئذٍ تبقى مجرد أفكار عارية ليس لها سلطان أن تؤذينا أو تقاوم ضمائرنا.

٢٣

الصلاة وحرب الأفكار

حينما يفهم العقل عدم نفع صراعه مع التخيلات (الانطباعات) التي قبلها سابقًا، ويعترف أمام الله بذنوبه السابقة؛ ترفع عنه التجربة ويستعيد قدرته على ضبط القلب وحفظه بعناية فائقة بواسطة الصلاة، مجاهدًا أن يدخل إلى أعماق القلب الداخلية الآمنة، هناك حيث لا تعود زوابع الأفكار الشريرة تكتسح في طريقها النفس والجسد معًا لتلقى بهما في مزالق الشهوة والنجاسة. ولا يوجد بعد أثر للطريق الواسع الرحب الذي تزينه الألفاظ والتصورات العالمية الخادعة، تلك التي تدنس كل من يسلك هذا الطريق مهما بلغت حكمته.

فأعماق النفس الداخلية النقية أي مسكن المسيح تتقبل عقلنا الذي تعرَّى من أغلفة العالم، ليدخل وحده خاليًا من أي شيء من هذا العالم... إنما يدخل معه فقط هذه الثلاثة التي أشار إليها الرسول "الإيمان والرجاء والمحبة" ١ كو ١٣:٣.

فإن كان أحد يحب الحق ويروم أن يحفظ قلبه، فانه كما قلت سابقًا يقدر أن يمنع إي محاولة لاجتذابه ولو إلى الانطباعات التي سبق له قبولها. كما يستطيع أيضًا أن يحفظ قلبه متعمقًا في داخله شيئًا فشيئًا حتى يقترب من الله (الساكن فيه)، بشرط ألا يهمل الصلاة والحياة (حسب إرادة الله)، لأن الإنسان لا يقوى على العمل القلبي، ما لم يحترس كل يوم، ليس فقط من الخارج بل ومن الداخل أيضًا، من أي تشتت أقلى أو انجذاب للذة جسدانية.

٢٤

المثابرة وحرب الأفكار

كان يمكن أن تُعرض أفكار الشيطان على آدم، وكان في قدرته أن يصغي إليها أو ينبذها.

فظهور الفكر في ذاته ليس شر أو خير، إنما هو اختبار لإرادتنا الحرة فمن يتمسك بالوصية (ويرفض الفكر) يُكافأ بإكليل (النصرة) جزاء إيمانه، ومن يميل إلى التراخي يُعلن عن استحقاقه للدينونة جزاء عدم إيمانه.

غير أنه يجب أن تعرف أننا لاُ ندان هنا في الحال بعد كل تصرف إن كنا نظهر فيه أننا ناجحون أو مستحقون للتوبيخ. بل بعدما نكمل حياتنا كلها التي خلالها نُجرَّب بالأفكار، فمرة ننتصر وأخرى ننهزم، نسقط ونقوم، نضل الطريق ونرجع إليه.... هذا كله يحتسب لنا بعد الرحيل، وبمقتضاه إما ندان أو نتزكى.

ليس مجرد اقتراح الفكر علينا خطية. كلا البتة! لأنه وإن كانُ يعرض علينا كفكر مجرد بغير رضانا، إلا أن الله وهبنا قوة على العمل الروحي، وصار فينا في إرادتنا أن نقاوم الفكر، مميزين الفكر الضار من النافع، قادرين على نبذ الفكر أو قبوله. هذا الذي ليس له أن يتكاثر فينا عن ضرورة إنما كنتيجة لموقف النفس منه (قبولنا إياه).

٢٥

إذا أظلمت نفوسنا بالشهوات والمجد الباطل وغرقت في أعماق الغباء، فإنها لا تعد تسمع لوصايا الكتاب المقدس ولا لنداءات العقل الطبيعي ولا لنصائح المختبرين، إنما تتبع تصوراتها الذاتية فقط. وطالما تحتفظ في داخلها بأسباب الشرور لا يمكنها أن تتحرر من الأعمال (الشريرة) المطابقة لها.

ولكن بقدر ما يؤمن الإنسان بالرب بخصوص السعادة المستقبلة ويحتقر المجد البشرى وملذاته، تكون له قوة بها يضبط أفكاره ويستمتع بسلام أكثر ممن يتمتع بالملذات. لهذا فإن كلاً منا يختلف عن الآخر في تفكيره وفي سلوكه.

٢٦

الله يسند المجاهدين

اعلم يقينًا أن الرب ينظر قلوب الجميع. كما وعد بحفظ أولئك الذين يُبغضون الأفكار الشريرة في بدء ظهورها ولا يسمحون للفكر أن يتكاثر ويدنس العقل والضمير.

وأما الذين لا يصدّون الفكر في بدء ظهوره، بالإيمان والرجاء بالرب، بل يتلذذون به، فإن الله يتركهم بلا معونة كغير المؤمنين، فتغلبهم أفكارهم الشريرة، ولا يطردها عنهم، لأنه يرى حبهم لها ولا يبغضونها في بداية ظهورها.

٢٧

لا تستطيع قوة ما أن ترغمنا على صنع الخير أو الشر، غير أن الذي نعمل له بحرية إرادتنا، إن كان الله أو الشيطان، فذاك يحثنا على العمل الذي يخص مملكته.

٢٨

بداية كل عمل هو عرض لفكرتين لا يلاحظهما العقل، هما طلب مديح الناس أو انهماك الجسد (في الملذات). وحينما تهجم الفكرتان علينا لاإراديًا فإنهما لا يُحسبان فضيلة أو رذيلة قبل أن تتصاع إرادتنا لإحداهما، إنما يكشفان عن إرادتنا...

٣٣

التوبة

أيها الخطاة لا تيأسوا... لا تيأسوا أبدًا!

نحن لا ندان على كثرة شرورنا، بل لعدم رغبتنا في التوبة وتعلم عجائب المسيح. فقد قال "الحق" نفسه، متحدثًا عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دماءهم بذبائحهم: "أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لأنهم كابدوا مثل هذا؟ كلا. أقول لكم. بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون. أو أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم. كلا! أقول لكم. بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" لو ١٣:٢-٥.

وهكذا ترون أننا ندان بسبب عدم توبتنا.

٣٤

وصايا عامة ووصايا خاصة

التوبة، كما أفهمها، لا يحدها زمن أو عمل ما، إنما تتم بتنفيذ وصايا السيد المسيح، وُتقاس بواسطتها.

غير أن بعض الوصايا أكثر عمومية من غيرها، تحوي في طياتها وصايا خاصة كثيرة، وهكذا بضربة واحدةُ تقطع فنون كثيرة للشر.

مثال ذلك، جاء في الكتاب المقدس: "كل من سألك فأعطه. ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه" لو ٦:٣٠. "ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده" مت ٥:٤٢... هذه وصايا خاصة، أما الوصية العامة التي تحوى هذه جميعها فهي "اذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء" مت ١٩:٢١. كذلك الوصية القائلة بأنه يجب على المسيحي أن "يحمل صليبه ويتبعني" مت ١٦:٢٤. قاصدًا بالصليب احتمال الضيقات. فمن يعطى للفقراء كل ما يملكه ويحمل صليبه، يكون بالتبعية قد نفذ كل الوصايا السابقة الذكر.

نفس الأمر ينطبق على قول الرسول: "فأريد أن يصلى الرجال في كل مكان رافعين أيادي طاهرة" ١ تي ٢:٨. والوصية هي قول الرب "وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك... وصلِ إلى أبيك الذي في الخفاء" مت ٦:٦. وأيضًا "صلوا بلا انقطاع" ١ تس ٥:١٧. فمن يدخل إلى مخدعه ويصلى بلا انقطاع يكون قد نفذ بالتبعية أن يصلى في كل مكان.

وأيضًا قيل: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق الخ... ولكن الوصية العامة لهذا كله تهدم ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله (٢ كو ١٠:٥). فالذي يهدم الظنون يكون قد صَّد كل الرذائل السابقة.

لهذا فان الشعب، المحب لله، ذا الإيمان الثابت، يعمل على تنفيذ الوصايا العامة، وفي نفس الوقت لا يهمل تنفيذ الوصايا الخاصة في ظروفها الخاصة بها.

بحسب ظني أن عمل التوبة يتم باقتناء فضائل ثلاث هي:

نقاوة الفكر،

الصلاة الدائمة،

احتمال الضيقات التي تحل بنا.

وهذه الفضائل الثلاث لا ننفذها حسب الظاهر فقط، بل ونتدرب عليها داخليًا، حتى نصير غير شهوانيين بممارستها لمدى طويل.

وطالما أن عمل التوبة لا يتم بدون هذه الفضائل الثلاث، لهذا فإنى أحسب أن التوبة تليق بكل الأزمنة، وتتناسب مع كل الذين يريدون أن يخلصوا، أبرارًا كانوا أم خطاة.

فلا يوجد قمة لكمالٍ لا تستدعى التدرب على هذه الفضائل الثلاث، فيها يدخل المبتدئون إلى التقوى، والسالكون في الطريق ينمون، والكاملون يثبتون فيها (في التقوى).

٣٥

احذر لئلا تسقط تدريجيًا

أوصى الرب البشرية جميعها بالتوبة (مت ١٧:٤). فيجب حتى بالنسبة للروحيين والمتقدمين ألا يهملوا هذه الوصية، أو يستهينوا بالصغائر والمعاصى التافهة جدًا، فقد قيل: "الذي يحتقر اليسير يسقط قليلاً (قليلاً)" حكمة يشوع ١:١٩.

لا تقل: كيف يسقط الإنسان الروحي؟ لأنه لو بقى على ما هو عليه فإنه لا يسقط، إنما بارتكابه شيئًا مغايرًا لحاله، مهما كان هذا الأمر صغيرًا، وتُرك دون أن يقدم عنه توبة، فان هذا الأمر الصغير يصير له جذرًا وينمو، ولا يعود يقدر أن ينفصل عن الإنسان، بل يدفع بالإنسان نحو الارتباط به كمن يقيده بسلسلة، جاذبًا إياّه بقوة بسبب بقائه فيه مدة طويلة. فلو أن هذا الإنسان حارب هذا (الشر) بالصلاة وقاومه، لاحتفظ بقامته الروحية. أما إذا تملك عليه هذا الأمر فإنه يستطيع بقوته المتزايدة أن ينجح في إسقاطه من (قامته الروحية) واضعاف قوته وعمله في الصلاة، عندئذٍ حتما يتدنس هذا الإنسان بشهوات أخرى. وهكذا ينحرف قليلاً قليلاً بكل شهوة. وبقدر ما يزداد زيغانه ينفصل عنه العون الإلهي، وأخيرًا ينقاد إلى معاصي جسيمة، وأحيانًا بغير إرادته بل تحت تأثير الخطايا السابقة التي تملكت عليه.

لكنك تقول: أما يقدر الإنسان منذ بداية الشر أن يصلي إلى الله لكي لا يسمح له بالخضوع للشر النهائي؟

أقول لك: نعم. أنه يقدر أن يصنع هذا. ولكنه باستهانته بالشيء الصغير وقبوله إياه بمحض حريته كأمر تافه، فإنه لا يصلى من أجله، غير عالمٍ بالحقيقة أن هذا الأمر التافه يمكن أن يكون بداية وعلة لأشياء ضخمة.

هذا يحدث بالنسبة للخير أو الشر!!

لكن عندما يتقوى الهوى (الخطأ) في الإنسان، ويجد له مكانًا فيه يعاونه في ذلك الإنسان بإرادته الخاصة، يبدأ يشن هجومًا ولو بغير إرادة الإنسان.

ولكي يتخلص الإنسان منه، يلجأ إلى الصلاة لله.... وأحيانا يكون كمن لا يجد معينًا، رغم أن صلاته قد سمعها الله، لأن الله لا يرسل العون بحسب تفكير الإنسان إنما حسبما يراه لصالحنا. فإذ يعلم عدم ثباتنا وعدم حذرنا، لذلك يسمح لنا بالأحزان والتجارب، لأنه لو رفع الخطية في الحال، فإننا نعود ونسقط فيها مرة أخرى.

لذلك يجب علينا أن نثبت محتملين كل ما يحل بنا، حافظين أنفسنا (في حالة) تليق بالتوبة.

٤٦

الصلاة كسلاح روحي

❖ يرغب الطوباوي بولس ألا نهمل الصلاة بأي حال من الأحوال، لهذا يقول "صلوا بلا انقطاع" ١ تس ١٧:٥.

علاوة على هذا فإنه يشير إلى ضبط الفكر (في الصلاة) فيقول "لا تشاكلوا هذا الدهر. بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة" رو ٢:١٢...

يوجهنا الرسول بولس إلى كمال إرادة الله، مشتاقًا أن نهرب إلى التمام من الدينونة، وإذ يعلم أن الصلاة هي المعين على تنفيذ كل الوصايا، لهذا فإنه لا يكف عن أن يوصى بها بكل الطرق قائلاً: "مصلين بكل صلاة وطلبة في كل وقت في الروح وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة".

٤٧

تتباين الصلوات فيما بينها. فالصلاة بفكر مضبوط غير الوقوف للصلاة جسديًا والفكر مشتت. والصلاة عندما لا يعطيها الإنسان وقتًا بل أثناء أحاديثه وأعماله العالمية، غير الصلاة عندما يفضلها الإنسان عن كل اهتمامات عالمية معطيًا إياها المكانة الأولى. إذ يقول الرسول "الرب قريب، لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله" في ٦،٤:٥.

ويقول الطوباوي بطرس: "فتعقلوا واصحوا للصلوات... ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتني بكم" ١ بط ٧:٤،٧:٥. كذلك الرب نفسه، العالم أن كل شيء يقوم بالصلاة سبق وقال: "فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟.. لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم" مت ٣٣،٦:٣١.

ربما بهذا يدعونا الله أيضًا إلى إيمان أعظم، لأنه إن كان الإنسان يعانى باعتكافه عن الاهتمام بالأمور الزمنية، يعانى شيئًا من الحرمان، أفلا يثق في الله من جهة مواعيده بالبركات الأبدية؟!

عن هذا تكلم الرب قائلاً: "الأمين في القليل أمين في الكثير" لو ١٦:١٠.

٤٨

الصلاة والاهتمام بالغد

وإذ يعلم الرب أن الاهتمام اليومي بالجسد بالنسبة لنا أمر لا مفر منه، لذلك فإنه لم يمنعنا عنه، إنما سمح لنا أن نهتم باليوم، ومن قبيل محبته المترفقة أمرنا ألا نهتم بالغد.

فالإنسان إذ يلبس جسدًا لا يقدر أن يكف بالكلية عن شئون حياته الجسدية، إنما يقدر أن يقمعها (يخفف منها) بالصلاة وضبط النفس...

لذلك فان من يرغب في البلوغ "إلى قياس ملء المسيح" أف ١٣:٤، يلزمه ألا يفضل شيئًا من الأعمال عن الصلاة، مع قيامه بالأعمال الأخرى دون أن يكون في عوز... **فيلزمه ألا يمتنع عن القيام بالعمل الخاص بالضروريات والذي ألزمته الشريعة الإلهية**، تحت ادعاء أنه يريد التفرغ للصلاة . فيجب عليه أن يميَّز بين الصلاة والعمل، مطيعًا الشريعة الإلهية من غير تساهل (أي منفذًا الاثنين معًا)...

٤٩

ضبط الفكر وترك الكماليات

الأعمال (الخاصة بالاحتياجات الجسدية) لازمة وضرورية توجهها الشريعة الإلهية. لكن يلزمنا أن نرفض الأعمال التي في غير أوانها (التفكير المتعلق بالغد)، مفضلين عنها الصلاة، وبالأكثر تلك الأعمال التي تتطلب نفقات كثيرة وفي نفس الوقت تُعتبر كماليات.

فبقدر ما يضبط الإنسان احتياجاته وينزع عنه الكماليات من أجل الله، يقمع تفكيره من التشتيت، وبالتالي يعطى فرصة للصلاة النقية وإظهار الإيمان الصادق في المسيح.

ولكن إن لم يستطع أن يصنع هذا بسبب ضعف إيمانه أو لضعف آخر فيه، فيجب على الأقل أن يتكلم الحق ويحاول أن يضبط احتياجاته قدر استطاعته مدركًا أنه لازال طفلاً (من جهة الإيمان).

٥٠

الصلاة والاهتمامات العالمية

ليتنا نطرد عنا كل الاهتمامات العالمية (القلق) بالصلاة والرجاء. فإذا لم نستطع أن نبلغ هذا إلى الكمال، فلنعترف بضعفنا أمام الله ولا نكف عن الجهاد في الصلاة. فإن إهمالاً كثيرًا خير من إهمال كامل (أي ترك الصلاة بحجة أننا منهمكون في العالم ولا فائدة منا).

على أي الأحوال، نحن محتاجون إلى أن يعلمنا الله التمييز الحسن فيما قلناه بخصوص "الصلاة والعمل"، حتى نقدر أن نعرف أي عمل نفضله عن الصلاة؟ ومتى يكون ذلك؟ (أي متى نترك الصلاة من حيث هي وقوف... ونعمل). لأن كل إنسان يمارس عملاً يحبه، يحسبه ضروريًا. لكن يجب ألا نعمل ما يرضى أنفسنا، بل ما يرضى الله.

إنه لا يزال أيضًا من الصعب جدًا التمييز بين الأعمال الضرورية التي لا يمكن الامتناع عنها، لنعرف أي الأعمال أفضل من الأخرى. لأن العمل (الخدمة) ليس كاملاً في أي وقت، بل في الوقت المناسب له... أما الصلاة فقد أمرنا بها على الدوام، لذلك يجب تمييزها (تفضيلها) عن كل الأعمال الأخرى.

وقد علم التلاميذ الجموع هذا التمييز الذي للصلاة... قائلين: "لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم مشهود لهم ومملوئين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة. فحسن هذا القول أمام كل الجمهور" أع ٦:٢-٥.

ماذا نتعلم من هذا؟ أن الذين لا يقدرون أن يبقوا في الصلاة (طول حياتهم) من الأفضل أن يخدموا (دون أن يمتنعوا عن الصلاة)، لئلا يخسروا الأولى والثانية، وأن الذين لهم الإمكانية (للتفرغ للصلاة...) فإنه خير لهم ألا يتركوا ما هو أفضل.

٥١

ليتنا نبدأ بعمل الصلاة، فإننا شيئًا فشيئًا لا نجد فقط الرجاء بالله بل وننال الإيمان الثابت والحب الخالص، كما نطرد الحقد، وننال محبة الإخوة وضبط النفس، والاحتمال، والمعرفة الداخلية، ونتخلص من التجارب، وننال عطايا النعمة والعمل الخالص للإيمان والدموع الحارة... كلها ينالها المؤمنون بالصلاة.

وليس فقط هذه العطايا، بل (وينالون بالصلاة أيضًا) احتمال الآلام والحب الخالص للقريب، معرفة الشريعة الروحية... وكل ما وعد به الله للمؤمنين في هذه الحياة أو الحياة الأخرى.

وباختصار، يستحيل على الإنسان أن يستعبد صورة الله بدون عمل النعمة الإلهية والإيمان، وهما يمنحان للإنسان الذي يبقى بتواضع عظيم في الصلاة بدون تشتيت (عقله).

٥٢

التقوى وتجنب الخطية

توجد ثلاث أنواع من التقوى:

النوع الأول: أن يتجنب الإنسان الخطية.

النوع الثاني: إذ يخطئ يحتمل الآلام العابرة.

النوع الثالث: إذ لا يقدر أن يحتمل الآلام يبكي على ذلك .

فالخطية التي لا تُمسح هنا بواسطة طرق المصالحة المناسبة مع الله (بالتوبة والإيمان بالمخلص)، بالضرورة نُدان عنها هناك، ما لم ينظر الله إلينا فيرانا متواضعين وباكين، إذ هو وحده الذي يعرف كيف يمحي خطايانا بنعمته القادرة.

٥٣

يا لشهوة حب إرضاء الناس!

يا لخطورة شهوة "إرضاء الناس"! إذ تزحف متخفية بطريقة غير مُدركة وتملك حتى على الإنسان الحكيم!

فكل الشهوات الأخرى يمكن لمن يطيعونها أن يروا آثارها فيتواضعون ويبكون. أما هذه الشهوة، فتلبس رداءًا من كلمات التقوى ومظاهر الورع، حتى يصعب بالنسبة لمن أفسدتهم أن يكتشفوا مظاهرها المتنوعة.

٥٥

ما هي مظاهر حب "إرضاء الناس"؟

أن أول هذه المظاهر ومصدرها (أمها) هو ضعف الإيمان، أما أولادها الذين يتبعونها فهم: الحسد، الكراهية، التملق، الغيرة، الخصام، الرياء، التخريب، عمل الخير لأجل الظهور فقط، الوشاية، الكذب، الظهور بمظهر التقوى... وغير ذلك من الشهوات المظلمة التي يصعب كشفها.

وما هو أشر، أن البعض يمدحون هذه جميعها تحت أسماء مزيفة، مدعين أنها صلاح، مخبئين ضررها في الداخل.

٥٩

خطورة الأفكار

سبب كل عمل شر هو تفكيرنا (نحن البشر). أستطيع أن أضيف إليه "كلماتنا وأعمالنا" لكن طالما لا يحدث قول أو عمل ما لم يسبقه تفكير، لذلك أعزى كل شيء إلى الأفكار.

يأتي الفكر أولاً، ثم بواسطة الأقوال والأعمال تنشأ العلاقات بيننا (وبين أقربائنا). وهذه العلاقات يمكن أن تكون أحد نوعين: أما **علاقات ناشئة عن خبث، أو عن حب.**

خلال هذه العلاقات نأخذ على عاتقنا أن نتعهد بعضنا البعض حتى أولئك الذين لا نعرفهم. ومن يتعهد إنسانًا بالضرورة يحتمل أحزانًا، كما يقول الكتاب المقدس: "يا بنى أن ضمنت صاحبك... نج نفسك إذا صرت في يد صاحبك" أم ٦:١.

لهذا ينبغي أن يحتمل كل واحدٍ منا، ليس فقط ما يقع عليه بل وأيضًا ما يقع على أقربائه، طالما أخذ بذلك على عاتقه.

٦٠

كما فعلت يُفعل بك

إن تعامل الإنسان مع غيره بدافع الخبث (يرتد عليه) لا إراديًا[١]. ويحدث هذا هكذا: من يحرم (أخاه) من شيء يحرم نفسه من نفس الشيء ولو بغير رغبته. وهكذا أيضًا من يهين غيره يسقط تحت حكم المهانين. ومن يظلم غيره يسقط تحت حكم المظلومين، والذين يلومون الآخرين يقع عليهم حكم الملامين. والذين يحتقرون الآخرين يقع عليهم حكم المحتقرين. والذين يكذبون يقع عليهم حكم المفترى عليهم. وإنني لا أعدد هنا، إنما أقول باختصار إن كل من يسيء يقع عليه نفس الحكم. وتشهد بهذا الكتب المقدسة إذ تقول: "من يحفر حفرة يسقط فيها ومن يدحرج حجرًا يرجع عليه" أم ٢٧:٢٦... ويقول أيضًا: "ألعل الله الذي يجلب الغضب ظالم؟!" (رو ٥:٣)...

٦١

أما أن يتعهد الآخرين بدافع الحب، فهذا أظهره الرب يسوع مرارًا. أولاً بشفائه أمراض نفوسنا، وبعد ذلك كان "يشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب" مت ٢٣:٤. ثم نزع عن العالم الخطية، مجددًا الذين آمنوا به، منقيًا طبيعتهم، ومحررًا إياهم من الموت، تاركًا للبشرية عبادة الله، معلمًا إياهم التقوى، ومظهرًا لنا أنه ينبغي أن نتألم إلى الموت من أجل الحب.

وأعطانا أيضًا صبرًا بالروح القدس، ووهبنا البركات المقبلة "ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن وما لم يخطر على قلب بشر" ١ كو ٩:٢. **وهكذا حمل الحكم عنا واحتمل العار والإهانات والربط والخيانة والبصق على الوجه وتقديم الخل والمر ليشرب والتسمير على الصليب والطعن بالحربة في جنبه.** وهكذا إذ صار واحدًا منا – أخذ جسدًا ونفسًا – احتمل الآلام عنا.

وقد نقل هذا الناموس (الذي هو الحب) أيضًا إلى رسله القديسين وتلاميذه والأنبياء والآباء والبطاركة...

وإذ أظهر الاحتمال عن الآخرين قال: "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه" يو ١٣:١٥. وهكذا قال أيضًا القديس بولس متمثلاً بالرب: "الآن أفرح في آلامي لأجلكم وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة" كو ٢٤:١. وهنا يشير إلى حمل الإنسان أحمال أخيه بدافع الحب.

٧٢

[١] هذه العبارة أوضحتها من واقع الفقرة في مجموعها.

لنبدأ ولنستمر حتى النهاية

من يحب بحق أن يعيش بحسب الإنجيل، يهدم بداية حالته الشريرة ونهايتها ويمارس كل فضيلة بالكلام والعمل. إنه يتحرر من كل مضايقات الشهوات، وإذ يتحرر عقله من هذا الصراع يمتلكه رجاء السعادة العتيدة، ولا يعرف شيئًا سوى **الفرح الدائم الذي يغذي النفس**.

٧٣

درجات الحياة الفاضلة

الخوف من جهنم يشجع المبتدئين (في حياة الفضيلة) حتى يتركوا شرهم، أما المتقدمون فإن **رغبتهم في المكافأة الحسنة** هي التي تحفزهم على تنفيذ الصلاح.

أما سر **الحب** فهو أنه يسمو بالعقل ليرتفع فوق كل المخلوقات، خافيًا عن عينيه كل شيء غير الله. إذ يعطى الله الحكمة لأولئك الذين هم عميان لا يرون الأمور الأرضية (مز ١٤٥:٨)، كاشفًا لهم أسرار لاهوته العميقة.

٧٤

خميرة كلمة الرب

"يشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاث أكيال دقيق حتى اختمر الجميع" مت ١٣:٣٣. هذا يعنى أن العقل قبل كلمة الرب وخبأها في كيانه الثلاثي المتكون حسب قول الرسول بولس من الجسد والروح والنفس، وتجمعت معًا بخميرة الإيمان، هكذا تعمل كلمة الله كالخميرة خلال الأفكار مثل الدقيق المنثور...

وبنفس الطريقة ربط الرب بين كلمة الحق وحبة الخردل الصغيرة التي تخترق قلوب السامعين وتنمو بجهاد الطاعة حتى تصير مثل شجرة عظيمة ثابتة على أرض مرتفعة، وهكذا تأتى الأفكار كقول الكتاب وتسكن فيها.

٧٨

يتنقى القلب (مز ١:٥١) عندما يقدم الله عقلاً متحررًا من كل الانطباعات والخيالات، ومستعدًا لعدم قبول أي شيء سوى الختم الإلهي الذي يملأه نورًا (وإشراقًا).

٧٩

حارب شهوة الجسد بشهوة الروح

الذين يتغلبون على ميولهم الجسدية بالشهوة المقدسة، يتحررون من كل القيود، حتى وهم باقون في الجسد. لأن الله الذي تركزت فيه شهوتهم هو أسمى – بغير مقارنة – من كل الأشياء، وهو لا يسمح للإنسان أن تتركز شهوته في غير الله.

لتنصب شهواتنا بقوة في الله. ولا يكون بعد للأمور الجسدية أن تأسر إرادتنا الحرة، إنما ترتفع نفوسنا على كل شيء حي وعقلي. فإننا إن فعلنا هذا لا يصيب إرادتنا أي أذى من الحياة الطبيعية بخصوص السكنى مع الله، الذي تفوق طبيعته كل فهم.

٨٠

لننصب خيمة الاجتماع خارجًا

أخذ موسى النبي العظيم الخيمة ونصبها خارج المحلة (خر ٣٣:٧)، وهذا يعنى أنه متى نصب أفكاره وعقله بثبات خارج الأمور المنظورة يبدأ يعبد الله (خر ٣٤:٨) وذهب به إلى مكان مظلم (خر ٢:٢١.) يعنى مكان المعرفة غير المنظورة حيث يبقى ليتعرف على أعظم الأسرار المقدسة.

٨١

أقم في دائرة الصمت

لا يمكننا أن نثبت في الفضيلة ما لم تهجر عقولنا تمسكنا العادي بالمادة وما هو غير الله تمامًا.

ولكن إن بلغنا هذه الدرجة بواسطة الحب، فإننا نختبر قوة مواعيد الله. لأنه يجب على المستحقين أن يؤمنوا أنه لا يتزعزع شيئًا طالما استمد العقل قوته على أساس الحب. فإنه لا يقدر العقل أن يتحرر من التغير (الطبيعي) في كل الأشياء إذا لم يخرج من دائرة ذاته، ويجعل له مكانًا في الصمت، الذي هو أسمى من الفكر.

٨٢

اغلق على حواسك في العلية

كان التلاميذ مجتمعين والأبواب مغلقة بسبب الخوف من اليهود (يو ٢٠:١٩.). فمن يقطن آمنًا في مدينة الرؤيا في غلبة التأمل المقدس خائفًا من الأرواح الشريرة، مغلقًا على حواسه، يتقبل كلمة الله. فتأتي إليه بطريقة خفية، وتظهر له بطريق غير الحواس، معلنة له السلام، وواهبة إياه هدوءً، معطية إياه أن يكون عديم الشهوات... وإذ تتنسم فيه تهبه مواهب الروح القدس العديدة، وتعطيه سلطانًا على الأرواح الشريرة وتظهر له علامات الأسرار الإلهية.

٨٣

سبت الإنجيل

الذين يقضون اليوم السادس حسب الإنجيل، وقد قضوا مقدمًا على تحركات الإثم الأولى، يصلون عن طريق الفضيلة إلى أن يكونوا عديمي الشهوات، ويتنقون من كل شر ويحفظون السبت[١] (خر ١٦:٢٩،٣٠.) في قلوبهم من كل تمثيل العواطف الخيالية. والذي عبر إلى الأردن (تك ٣٢:١٠،٢٢) فقدُ نقل إلى عالم المعرفة الذي فيه يتشكل العقل سريًا بالسلام، وهكذا يصير مسكنًا للرب في الروح.

٨٤

سبت السبوت (لا ١٦:٣١) هو راحة النفس العاقلة الحكيمة، التي تسحب العقل خارجًا، حتى من الكلام المقدس المخبأ سرًا في المخلوقات، وفي بهجة الحب تلبسه رداء إلهيًا فقط، حتى أنه بواسطة معرفة الله السرية تجعل النفس العقل متحدًا بالله اتحادًا كليًا.

[١] هنا كلمة "السبت" يعني راحة القلب من الشهوات.

٣. مقالتان عن "الناموس الروحي"

١

كنت تطلب مني دائمًا، راغبًا أن تتعلم:
ما هو طريق "الناموس الروحي" رو ١٤:٧ كقول الرسول؟
وما هو فكر الذين يسعون في طاعته؟
وما هو عملهم؟
وإنني سأخبرك قدر ما أستطيع.

٢

الله هو العامل

أول كل شيء، أن **الله هو بدء كل عمل صالح وفي وسطه ونهايته.**
فالصلاح[١] لا يمكن أن يكون عمليًا، ولا يوثق فيه، إلا في يسوع المسيح والروح القدس.

٣

يقدم الله لنا كل صلاح بحكمة خاصة، ومن يدرك هذا لا يفسد الصلاح المُقدم له.

٤

الإيمان الثابت برج حصين
والمسيح بالنسبة للمؤمن هو كل شيء.

٥

ليكن (الله) سيد كل صلاح: سيدًا لك في كل عمل صالح، حتى تكون أعمالك حسب مشيئته.

٦

الكتاب المقدس رسالة شخصية

الإنسان العامل (النشيط) المتواضع والروحاني يرى أن كل ما يقرأه في الكتاب المقدس إنما كتب لأجله هو وليس لأجل الآخرين.

[١] الصلاح هنا لا يعني الأعمال البشرية الصالحة بل عطية من قبل الله. (عن الترجمة الروسية)

٧

الحاجة إلى الصلاة والقراءة

صلِ إلى الله حتى يفتح قلبك فتعاين مدى نفع الصلاة والقراءة وتفهم ذلك بالاختبار العملي لهما.

٨

التواضع والمواهب روحية

من أُعطى له بعض مواهب روحية، ويشفق على من لم توهب له هذه المواهب، يحتفظ بمواهبه بواسطة عطفه على أخيه. أما الذي يطلب مجدًا باطلاً بسبب مواهبه، فإنه يفقدها مضروبًا بأفكار الكبرياء.

١٥

التواضع والدموع

لا تنتفخ لأنك تسكب دموعًا في الصلاة، لأن المسيح هو الذي يلمس عينيك ويعطيك البصيرة الداخلية.

١٦

التلميذ الروحي ليسوع والمبشر بأعظم التعاليم هو ذاك الذي يتشبه بالأعمى الذي طرح رداءه واقترب من يسوع (مر ١٠:٥٠).

١٧

انسحاق القلب

إذ يجول الشر في الفكر (بلذة) يتقسى القلب. أما ضبط النفس مع الرجاء فيبددان الشر ويلينان القلب (ويسحقانه).

١٨

يوجد انسحاق للقلب، روحي ومفيد، وهذا يلمس القلب في أعماقه.
ويوجد انسحاق آخر، مضر ومقلق، هذا يقوده إلى الهزيمة فقط (كاليأس).

١٩

الانسحاق الذي لا يجرح القلب بل يفيده هو:
١. السهر،
٢. الصلاة،
٣. احتمال الأحزان (من غم ومصائب وكوارث).
إذ نقتني هذا الانسحاق، لا نخلط بين الثلاثة في ارتباطهم معًا.
ومن يستمر في ممارسة هذه (الفضائل الثلاثة) يصير له عونًا في ممارسة الفضائل الأخرى...
وأما الذي يهمل في (الفضائل الثلاث)... فإنه يعاني أمورًا لا تحتمل أثناء انتقاله.

٢٠

حياة اللذة وحياة الجهاد

القلب المحب للملذات هو سجن وقيود بالنسبة للنفس عند انتقال الإنسان، أما القلب المجاهد، فهو باب مفتوح لها.

٢١

القلب القاسي

"باب الحديد الذي يؤدي إلى المدينة" أع ١٢:١، هو القلب القاسي. فإن تألم الإنسان (تاب)" وندم، يُفتح الباب بناء على رغبته، كما فُتح لبطرس.

٥٤

اعرف هدفك

لا تفعل شيئًا ولا تفكر في شيء بدون هدف مقبول لدى الله، لأن من يسافر بلا هدف يتعب باطلاً.

٥٦

الضيقات وتذكُّر الله

تُذكِّر الأحزان الإنسان العاقل بالله، أما إذا نسى الإنسان الله فإنه يغتم بسبب الأحزان.

٥٧

ليعلمك كل ضيق طارئ أن تتذكر الله، ولا تُحرم قط من وجود باعث لك على التوبة.

٥٨

النسيان نتيجة الإهمال

"النسيان" ليس له سلطان علينا، إنما الذي يعضده هو إهمالنا، فيأتي النسيان كنتيجة للإهمال.

٥٩

لا تقل: ماذا أفعل، فإنني لا أريد أن أنسى، ومع ذلك فإن "النسيان" يسيطر على؟
هذا يحدث معك، لأنك أهملت ما هو ضروري أثناء تذكرك له.

٦٠

اصنع الخير الذي تذكره، عندئذٍ فإن الخير الذي لا تذكره يكشف لك عن ذاته. ولا تسلم أفكارك للنسيان بغباوة.

٦١

يقول الكتاب المقدس: "الهاوية والهلاك أمام الرب" أم ١١:١٥. هذا قاله عن جهل القلب والنسيان.

٦٢

الهاوية هي الجهل، لأن كليهما ظلام.
والهلاك هو النسيان، لأن في كليهما كان يوجد شيء وُفقد.

٦٥

الضيق والحب الروحي

المتألم في الله هو وارث لسمات الحنو، لأن الحب الروحي يُختبر في الضيق.

٦٦

الفضيلة والألم

لا تفكر في أن تطلب فضيلة بغير ألم. فإن مثل هذه الفضيلة تكون غير مأمونة، متى جاءت بسهولة.

٦٧

انظر إلى نهاية كل ألم إلزامي، (فيمكنك) أن تجد فيه غفرانًا للخطايا (أي فرصة للتوبة والرجوع إلى الله)...

٧٤

النعمة الإلهية

عندما يصنع إنسان خيرًا لآخر، بكلمة أو عمل، فليعلم أن ذلك يتم بنعمة الله...

٧٥

حب الملذات والنسيان

ثمرة حب الملذات هو الإهمال، والإهمال يولد النسيان، لأن الله يعطي كل إنسان معرفة ما هو صالح له.

٨١

الكبرياء

الإنسان الذي له معرفة قليلة ويفتخر بها جاهل، لا في كلماته فحسب، بل وفي تفكيره أيضًا.

٨٤

اصنع الخير الذي تعرفه

لا تقل: أني لا أعرف ما هو حق. فأنا لست مخطئًا فيما صنعت! لأنك **لو صنعت الخير الذي تعرفه، فسينكشف لك الخير الذي لا تعرفه شيئًا فشيئًا، لأن الخير يكشف عن بعضه البعض.**

ليس من المفيد لك أن تعرف الخير التالي ما لم تنفذ الأول، لأن "العلم ينفخ"، متى كان بدون عمل، ولكن "المحبة تبني"، لأن "المحبة تحتمل كل شيء" ١ كو ٨:١؛١٣:٧.

٨٥

اقرأ الكتاب المقدس بالعمل

اقرأ الكتاب المقدس عن طريق تنفيذك له عمليًا ولا تغالي في القراءة (بدون تنفيذ) منتفخًا لمجرد معرفة آراء لاهوتية.

٨٦

من يهمل العمل ويكتفي بالمعرفة (النظرية) وحدها، لا يمسك بسيف ذي حدين بل بعكاز من قصبة، تلك التي عبَّر عنها الكتاب المقدس أنها في أثناء المعركة تدخل في كف الإنسان وتثقبه (إش ٦:٣٦)، وتدميه قبل أن يجرحه العدو، وذلك بسم الكبرياء.

٩٤

احذر الخطايا الصغيرة

يقدم لنا الشيطان خطايا صغيرة تبدو كأنها تافهة في أعيننا، لأنه بغير هذا لا يقدر أن يقودنا إلى الخطايا العظيمة.

٩٦

لا فائدة للإنسان من تركه للعالم (إلى البرية) وهو لا يزال يسلك في محبة الملذات لأنه ما قد اعتاد أن يصنع من قبل وهو لديه مقتنيات، يصنعه الآن وهو لا يملك شيئًا.

١١٠

المعرفة

من يجهل الحق لا يقدر أن يكون مؤمنًا حقيقيًا، لأن المعرفة تسبق الإيمان طبيعيًا.

١١٧

ما تزرعه إياه تحصد

إنني أعجب من عدل الله، فإذ نزرع الشر بإرادتنا نحصده بغير إرادتنا!

١١٨

وإذ هناك فترة بين الغرس والحصاد، لذلك يجب علينا ألا نيأس من نوال المكافأة.

١١٩

خطورة الفكر

إذا أخطأت انتهر فكرك لا جسدك، فلو لم يُجمح الفكر ما كان للجسد أن يتبعه.

١٣٨

عندما نرفض تنفيذ كل خطية إرادية، تبقى فقط في الفكر. عندئذٍ نبدأ في حرب حقيقية مع مثيرات الشهوات التي تملأنا.

١٣٩

الدافع للشهوة هو حركة لاإرادية في القلب... إنه يشبه المفتاح (الذي يفتح الباب للخطية)، لهذا يحاول المختبرون أن يمسكوا به من البداية.

١٤٧

تذكر الله

بدون تذكر الله لا تكون هناك معرفة حقيقية، إذ بدون الأولى تكون الثانية مزيفة.

١٦٣

الحياة الداخلية

أسكن بعقلك (فهمك الروحي) في قلبك، فإنك لا تعود تقلق بسبب التجارب، لكنك إن خرجت من هناك فإنك ستتألم من أي شيء يحل بك.

١٦٤

التجارب والحياة الداخلية

صلِ إلى الله لكي لا تحدق بك تجربة، ولكن إن أحدقت بك فانظر إليها أنها تخصك وليست غريبة عنك.

١٦٨

من تطوح به الأفكار، تجعله أعمى، يرى آثار الخطية ولا ينظر أسبابها.

١٧٦

من هم الصالحون؟

يرى البعض أن الصالحين هم الماهرون في تصرفهم في الأمور المادية، لكن الحقيقة أن الصالحين هم الذين يسيطرون على رغباتهم.

١٧٧

كيف تدمر الشر؟

قبل أن تدمر الشر (الشهوات) لا تصغي إلى قلبك، لأنه يطلب ما قد وُضع فيه.

١٧٨

كما أن بعض الحيات توجد في الغابات، وبعضها يزحف في البيوت، هكذا أيضًا بعض الشهوات نتصورها ذهنيًا والأخرى نترجمها عمليًا.

على أي الأحوال، يحدث أحيانًا أن أحد النوعين يمكن أن ينقلب إلى النوع الآخر.

١٧٩

الشهوات القديمة

عندما ترى بداخلك حركة هيجان عنيفة، وأن ذهنك الهادئ قد تهيج نحو الشهوة، فأعلم أن ذهنك قد سبق وانشغل بهذا الفكر (الشهواني في الماضي) وترجمه إلى عمل ثم وضعه في القلب.

١٨٠

كما لا يأتي السحاب بدون نسمات الريح، هكذا لا تتولد الشهوة بدون (حركة) الأفكار.

١٨١

إن امتنعنا عن إشباع شهوات الجسد، حسب تعاليم الكتاب المقدس، فإنه بمعونة الرب يكف ما هو كائن فينا من قبل (من شهوات للنفس أو عادات شريرة)، ولا يعود يضايقنا.

١٨٢

الصور التي تتأصل في الذهن (بالتنفيذ العملي) أشر من تلك التي هي مجرد تصورات عقلية (دون أن ننفذها) وأكثر سلطانًا منها. ولكن هذه الأخيرة تسبق الأولى وتكون علّة لها.

١٨٣

يوجد شر ينتج عن القلب، ويمتلك علينا بسبب تهيئات قديمة وارتباط القلب بها.

وهناك شر يهاجمنا ذهنيًا بسبب حوادث يومية (ليس له صلة بالشهوات القديمة).

١٨٤

يعطي الله الأعمال قيمتها حسب نيتنا "ليعطِك حسب قلبك" مز ٢:٤..

١٨٦

الضمير

الضمير هو كتاب طبيعي (لأحكام الله)، من يقرأه يكتسب عمليًا خبرة في الوساطة الإلهية.

١٩٠

الوصايا

يختفي الرب في وصاياه، فمن يطلبه يجده فيها (بتنفيذه إياها).

١٩١

لا تقل أني أتممت الوصايا ولم أجد الرب، لأن من يبحث عنه بحق يجد سلامًا.

١٩٢

و**السلام هو تحرر من الشهوات**، الأمر الذي لا يمكن أن نناله بدون عمل الروح القدس.

١٩٣

تنفيذ الوصية شيء، والفضيلة شيء آخر. ولو أن كلاً منهما يقترض من الآخر فرصًا لصنع الخير.

١٩٤

تنفيذ الوصية يعني مجرد إتمام ما هو مأمور به،
وإذ يتم هذا يُرضي الله بحق، وهذه هي الفضيلة.

١٩٨

الضمير والصلاة

ننال الضمير الصالح بالصلاة،
وننال الصلاة النقية خلال الضمير،
فبحسب طبيعتيهما كل منها يحتاج إلى الآخر.

٤. ٢٢٦ نصًا
إلى أولئك الذين يظنون أنهم بأعمالهم (الذاتية) يتبررون

ملاحظة[١]

القديس مرقس الناسك، كغيره من القديسين يؤمن أن الإيمان بدون أعمال باطل، والأعمال بدون إيمان باطلة أيضًا.

هنا يوجه القديس حديثه إلى الذين حسبوا أن بأعمالهم الذاتية وبمجرد جهادهم يستحقون الحياة الأبدية، لا بفضل نعمة الله، بل كثمنٍ عادلٍ لأعمالهم. لهذا فلا عجب إن رأيناه يبخس من قيمة أعمالهم، ليس لأنه لا حاجة للأعمال أو أن الإيمان المجرد – بدون أعمال – كفيل بخلاصنا، **إنما لأن هؤلاء سقطوا في الكبرياء أو في البر الذاتي، حاسبين أنهم بأعمالهم وحدها يتبررون أمام الله ويفتخرون، فاهتموا بالأعمال الظاهرة الخارجية وحدها دون الإيمان.**

الرب قادر أن يعطينا القلب المنكسر أمامه، ويهبنا أن نؤمن ونجاهد أيضًا بغير تراخٍ كل أيام غربتنا.

لهذا وإن بدأ يوبخهم على اتكالهم على أعمالهم الذاتية لكننا نجده في نفس المقال يقدر ضرورة الأعمال فيقول في الفقرة ٤ "يهب المسيح الحرية لمن يخدمونه حسنًا" وفي الفقرة ٥ يؤكد أن الإيمان بدون أعمال باطل. وأخيرًا يؤكد ضرورة تمليح العمل الصالح بملح النعمة الإلهية (فقرة ٢٤).

في هذه الفصول ينفضح أولئك الذين لهم مجرد حياة بارَّة من الخارج، وذلك بواسطة المؤمنين الحقيقيين العارفين للحق الصحيح.

٢

ملكوت السماوات نعمة مجانية

إذ أراد (الرب) أن يُظهر أنه بالرغم من التزامنا بكل وصية، لكنه يهب البنوة للبشر باستحقاق دمه، لذلك قال: "متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا إننا عبيد بطالون، لأننا إنما نعمل ما كان يجب علينا" لو ١٧:١٠.

هكذا فإن ملكوت السماوات هو هبة يعطيها الرب للعبيد المؤمنين، وليس جزاءً لأعمالنا.

٣

لا يطلب العبد التحرر (من العبودية) جزاءً لعمله، وإنما يحاول أن يقدم كل ما في وسعه كمدين، وينتظر التحرر كهبة.

---

[١] من وضع المعرب.

٤

"المسيح مات من أجل خطايانا" ١ كو ٣:١٥. وهو **يهب الحرية لمن يخدمونه حسنًا**، إذ يقول: "نعمًا أيها العبد الصالح والأمين؛ كنت أمينا في القليل فأقيمك على الكثير؛ ادخل إلى فرح سيدك" مت ٢٣:٢٥.

٥

أكِّد المعرفة بالعمل

من يؤسس نفسه على مجرد المعرفة وحدها، لا يعتبر عبدًا مؤمنًا. فالعبد المؤمن هو من يعترف بإيمانه بطاعته للمسيح معطي الوصايا.

٦

فمن يطيع الوصايا يُكرم الرب. ومن يرتكب خطية أو يعصى الله يحتمل ما يُوقَّع عليه جزاء استحقاقه.

٧

إن أحببت المعرفة (الإيمان)، حب العمل أيضًا، لأن المعرفة بدون العمل تنفخ الإنسان.

١٢

فالمعرفة ما لم يطابقها العمل تكون غير مأمونة، حتى ولو كانت معرفة حقيقية، لأن كل شيء يثبت بالاختبار.

١٣

الإهمال في الاختبار يجعل المعرفة (الخاصة بها) مظلمة، لأنه متى أُهمل الاختبار إهمالاً تامًا، فإنه حتى الذاكرة (الخاصة بهذه المعرفة) تبطل شيئًا فشيئًا.

١٤

من يريد أن يصنع شيئًا، لكنه عجز عن التنفيذ، فإنه في نظر الله – فاحص القلوب – يكون كمن قد صنعها. هذا ما يجب أن تعرفه بخصوص الأعمال الصالحة أو الشريرة.

١٧

العقل والجسد

يصنع العقل خيرًا أو شرًا كثيرًا، حتى ولو لم يستخدم الجسد. أما الجسد فلا يقدر أن يفعل شيئًا بدون العقل، لأن التفكير يسبق العمل.

١٨

الإيمان والأعمال

يظن البعض أنهم يؤمنون بحق، وهم لا ينفذون الوصايا. والبعض بينما ينفذون الوصايا يتوقعون الملكوت جزاءً عادلاً (لاستحقاقاتهم الذاتية). كلاهما يخطئان ضد الحق.

١٩

لا يوجد إلزام من جانب السيد لمكافأة العبيد، ومن جانب آخر من لا يخدم حسنًا لا ينال **الحرية**.

٢٠

إن كان المسيح قد مات لأجلنا "كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام" ٢ كو ١٥:٥، فمن الواضح أننا مُلزمين أن نخدمه حتى الموت. فكيف إذن ننظر إلى البنوة كجزاءٍ عادلٍ (لأعمالنا الذاتية)؟

٢٣

النقاوة غاية العمل الصالح

نحن الذين وُهبت لنا الحياة الأبدية نصنع الأعمال الصالحة لا لأجل الجزاء، بل لحفظ النقاوة التي وُهبت لنا.

٢٤

كل عملٍ صالحٍ نصنعه حسب قوتنا الطبيعية ينزعنا بالأحرى من (الأعمال الشريرة) المضادة، لكنه **يعجز عن أن يجعلنا قديسين بدون النعمة**.

٢٥

يتخلص الناسك من النَّهم،
والقانع من الطمع،
والصامت من الكلام،
والطاهر من الالتصاق بالملذات الجسدية،
والعفيف من الزنا،
والقانع من محبة المال،
والوديع من الهياج،
والمتواضع من الزهو،
والمطيع من العصيان،
والأمين من الرياء،
والمصلى من اليأس،
والفقير اختياريًا من (محبة) الربح،
والمعترف بالإيمان من الجحود،

والشهيد من عبادة الأوثان...

وهكذا ترى أن كل فضيلة تكتمل إلى الموت ليست إلا انسحابًا من الخطية. وهذا هو عمل طبيعي لا نُكافأ عنه (في ذاته بدون النعمة) بالملكوت.

٢٦

يستطيع الإنسان أن يحتفظ بما هو طبيعي لنفسه، أما المسيح فيهب البنوة باستحقاق الصليب.

٢٨

يوجد عمل للنعمة، بالنسبة للأطفال (في القامة الروحية) غير محسوس.

كذلك يوجد عمل (للعدو) الماكر الذي يتشبه بالحق.

الأفضل ألا ينهمك الإنسان كثيرًا، مفكرًا في مثل هذه الأعمال حتى لا يُخدع (فينسب أعمال أحدهما للآخر)، وفي نفس الوقت لا يتجاهلها تمامًا. إنما يقدم كل الأعمال أمام الله برجاء حتى يعرف ما هو مفيد منها.

٢٩

من يريد أن يعبر البحر العقلي يلزمه أن يكون طويل الأناة، متواضعًا، ساهرًا، ومتقشفًا.

فإن حاول أحد أن يعبر البحر العقلي بغير هذه الفضائل الأربع، فإن كل ما يصنعه هو أنه يعذب قلبه دون أن يعبر البحر.

٣٠

الصمت والحياة المقدسة

الصمت هو قطع كل الشرور.

إن ارتبط الصمت ومعه الفضائل الأربع السابقة (أن يكون طويل الأناة، متواضعًا، ساهرًا، ومتقشفًا) مع الصلاة، لا يكون هناك عون أعظم من هذا، ولا طريق أقصر منه في الوصول إلى أن يكون الإنسان "غير شهواني".

٣١

لا يقدر العقل أن يصمت ما لم يصمت الجسد، ولا يمكن للحائط الفاصل بينهما أن يتحطم إلا بالصمت والصلاة.

٣٣

لا تكون الصلاة كاملة بدون ابتهال عقلي.

العقل الذي يدعو الله بدون تشتت فكر يكون مسموعًا لدى الله.

٣٤

عندما يصلي الذهن بدون تشتيت، ينسحق القلب، "القلب المنكسر والمتواضع لا يرذله الله" مز ٥..

٤٨

الحنو

علامة رباط الحب هو غفران المعاصي؛ هكذا أحب الله العالم.

٤٥

ترفق بالخطاة

بدون معرفة حقيقية، يستحيل عليك أن تغفر لأخيك من كل قلبك ما أخطأ به في حقك. لأن **هذه المعرفة تجعل الإنسان يشعر أن ما سقط فيه الغير كما لو كان قد سقط فيه هو.**

٥٠

إنك لن تخسر شيئًا مما تركته من أجل الرب، لأنه سيرتد إليك مضاعفًا في حينه.

٥١

عندما ينسى الإنسان الحنو، تصير كل أعمال الفضيلة المنظورة باطلة.

٥٢

إن كانت المشورة الشريرة (التي لا يأخذها الإنسان من غيره بل نابعة عن فقدانه للتمييز الحسن) هذه مضرة بالنسبة لأي إنسان، فبالأولى تكون أكثر ضررًا لمن يسلكون حياة عنيفة.

٥٧

صنع الصلاح لأجل الله

من يصنع خيرًا وينتظر الأجرة، يصنع الخير لتحقيق شهوته وليس لأجل الله.

٦٠

أولئك الذين يميلون إلى التساهل مع أنفسهم دائمًا يرفضون أن يصنعوا أي عمل صالح بحجة أنهم لم ينالوا عونًا من الأعالي.

٦١

الذي يعتمد في المسيح ينال النعمة التي لا تكف عن أن تعيننا خفية، لكن هذا يتوقف على سلطاننا إن كنا نريدها أن تعمل فينا عملاً صالحًا أو لا.

٦٢

حسن إن يثور الضمير في البداية، هذا الذي يرشد صانعي الشر ليقبلوا الله بالتوبة.

٦٣

بعد ذلك قد يكمن الضمير في نصيحة أخ. وأحيانًا يكمن في فكرةٍ تحدث عن طريق القراءة، فتعّلم العقل الحق كاستنتاج طبيعي (بهذه الفكرة).

فإن كنا لا ندفن هذه الوزنة (الضمير) المعطاة لنا بهذه الظروف أو على أمثالها، ندخل بالحقيقة فرح الرب.

٦٦

تأمل يوم الدينونة

إن وضعتَ في ذهنك دينونة الرب للأرض كلها (مز ٩٦:١٣) كقول الكتاب المقدس، فإن كل حادث يعلِّمك معرفة الله.

٦٧

ينال كل إنسان استحقاقاته تبعًا لحالته الداخلية، ولكن العلاقة الحقيقية بين أعماله الظاهرة (وحالته الداخلية) يعرفها الله وحده.

٨٣

العقل الذي ينسى المعرفة الحقيقية يشن حربًا مع الناس لأجل أمور ضارة به يظنها نافعة له.

١٠٤

الإنسان عدو نفسه

إن كان – حسب تعاليم الكتاب المقدس – كل ما نفعله لا إراديًا هو نتيجة لما نفعله إراديًا، فمن الواضح أنه ليس هناك عدو للإنسان غير ذاته.

١٣٢

لا تقل عن الإنسان غير الشهواني أنه لا يصيبه حزنًا، لأنه إن لم يحزن من أجل نفسه، يجب عليه أن يحزن من أجل أخيه (الساقط).

١٤٤

معرفة الأحداث (معرفة عملية) شيء، ومعرفة الحق شيء آخر، وكما تسمو الشمس عن القمر هكذا تعلو معرفة الحق في الفائدة عن معرفة الأحداث.

١٤٥

معرفة الأحداث (العملية) تزداد مع تنفيذنا للوصايا. وأما معرفة الحق (الروحية) فتزداد برجائنا في المسيح.

١٤٦

إن أردت أن تخلص وتصل إلى معرفة الحق، حث نفسك على التسامي فوق الأمور الحسِّية وتمسك مترجيًا الله وحده.

وهكذا إذ تُجبر نفسك على الدخول إلى الأعماق يلتقي بك رؤساء وسلاطين (الشياطين) في حربٍ ضدك عن طريق بذر أفكارهم فيك. فإن قهرتهم بالصلاة والتمسك بالرجاء الحسن تنال نعمة إلهية تحررك من الغضب الآتي.

١٤٧

الصلاة كسلاح روحي

من يفهم القول السري للطوباوي بولس "فإن مصارعتنا... مع أجناد الشر الروحية" أف ٦:١٢، يفهم أيضًا مثل الرب الذي انتهى بقوله: "ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمل" لو ١٨:١.

١٤٨

سبتنا الروحي

تأمرنا الشريعة... أن نعمل ستة أيام ونستريح في اليوم السابع من أعمالنا. فالنفس عملها هي أن تستعمل مقتنياتها حسنًا (الأعمال). وراحتها تكمن في أن يبيع الإنسان كل ما عنده حسب قول الرب، ويعطى الفقراء، وتصير النفس في سلام خلال انعزالها عن المقتنيات وجهادها عاملة برجائها الداخلي.

وأيضًا يحثنا الرسول بولس أن ندخل بكل جهاد إلى هذه الراحة، قائلاً: "فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة" عب ٤:١١.

١٥١

لا تتذكر تفاصيل الخطايا

تذكُّر الخطايا السابقة (بتفاصيلها) تضر الإنسان ذا الرجاء الحسن. فإنها عندما تثور في النفس ويلازمها الحزن تعطي رجاءً. ولكن عندما تظهر ولا يلازمها ندم، تثير الدنس في الداخل مرة أخرى.

١٥٢

عندما يتقبل العقل – خلال إنكاره للذَّات – رجاء متحررًا من الشك، حينئذٍ يُظهر له العدو صورًا للخطايا السابقة التي ارتكبها، مستترة وراء الاعتراف. لكي يثير فيه نيران الشهوة التي أخمدتها فيه نعمة الله، وهكذا يصيب الإنسان بالضرر سرًا. فإنه في هذه الحالة حتى الفكر المستنير الذي يكره الشهوات، يتعكر بما يصنعه العدو.

ولكن إن ظل هذا العمل مغلفًا بجو من الضباب، فيشعر الإنسان بحنو نحو الشهوات، ويتعامل ويتجاذب مع الشهوة... حتى يصير هذا التذكر (للخطايا السابقة) ليس للاعتراف وإنما كدافع للشهوة.

١٥٣

إن أردت أن تقدم اعترافًا لله بلا لوم، لا تتذكر خطاياك السابقة في مظهرها (في تفاصيلها)، بل بشجاعة **تذكر مرارة نتائجها**.

١٥٥

الإنسان المختبر الذي يتعلم الحق، يعترف بخطاياه لله ليس عن طريق إحصائه لما صنعه بل مرارة نفسه لما يعانى منه.

١٥٦

الحاجة إلى التوبة والندامة

عندما لا يكون لديك شعور بالحزن من أجل الخطية والأمور المشينة من قلبك، لا تحاول أن تظهر التوبة عن طريق مجرد ممارسة فضائل أخرى، **لأن هذا باطل** "**بدون الحزن في الداخل**" ويخدم الخطية، ولو كانت أعمالاً حسنة.

١٥٧

كما أن الفضائل غالبًا ما تنتج عن أحزاننا المؤلمة... هكذا أيضًا الخطايا تنبع عن الزهو والتراخي.

١٩٦

تساند الأعمال التي ترضى الله كل الخليقة، وأما الأعمال التي يرفضها الله فتضادها كل الخليقة.

٢٠٤

الضيقة تكشف عن أعماقنا

تفضح كل ضيقة إرادتنا الداخلية عما إذا كانت تميل إلى اليمين أو إلى اليسار. تدعى الضيقة غير المتوقعة "**تجربة**"، لأنها تُخضع الإنسان **لامتحان** يكشف عن أحواله السرية.

٢١٢

الحوادث الجارية في الحياة تشبه سوقًا. فالتاجر الصالح يحقق ربحًا ولا يكابد خسارة.

٢٢٣

الإنصات إلى الوصية

كل كلمة من كلمات المسيح تكشف عن مراحم الله وبرّه وحكمته ويمكن أن تكون لهذه الكلمة قوتها في النفس عن طريق الأذن إن أصغت إليها طوعًا. هذا هو السبب في أن الإنسان القاسي القلب والشرير الذي لا يصغي إليها طوعًا ليس فقط لا يدرك الحكمة الإلهية بل ويصلب (يسوع) الذي علّم بها.

لذلك يجب علينا أيضًا أن ننظر إن كنا نصغي إليه طوعًا، إذ قال: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي... الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبى وأنا أحبه وأظهر له ذاتي" (يو ١٤،٢١:١٥).

ألا ترى كيف أنه يجعل في وصاياه مكمنًا لإعلان ذاته؟ إن أعظم الوصايا هي أن تحب الله والقريب، تلك التي تأتي بعد ما نرفض كل الأمور الزمنية ويستقر ذهننا.

٢٢٤

خطية الاهتمام بالغد

أمرنا الرب قائلاً: "لا تهتموا بالغد" مت ٦:٣٤. وهذا ما يلزمنا أن نصنعه، لأنه كيف يمكن للإنسان أن يتحرر من الأفكار الشريرة ما لم يرفض الأمور المادية والاهتمام بها؟ وكيف يمكن لإنسان تحيط به الأفكار كضباب وظلام للنفس أن يرى الخطية المختفية على حقيقتها؟

من هنا تبدأ كل الأفكار الشريرة والشهوات، عندما يجربنا الشيطان بفكر غير إلزامي مشيرًا إلينا بالخطية، ولكن الإنسان يرتبط به عن طريق الزهد والتراخي. حتى أنه عند تعقله يقرر عدم ارتكابه، إلا أنه يشعر بلذة في حركاته ويلتصق به.

أما إذا لم يعرف هذه الخطية الرئيسية (الاهتمام بالغد) فكيف ومتى يقدر أن يصلي من أجل أن يتنقى منها؟ وبعدم تنقيته منها، كيف يجد المقدس النقي؟ وإذ لا يجد هذا المقدس كيف يرى المسكن الخفي الداخلي للمسيح مادمنا نحن مسكن الله كقول الأنبياء والأناجيل والرسل (زك ١.:٢، يو ١٤:٢٣، ١ كو ٣:١٦)؟!

٢٢٥

لنصلي ونعمل!

لذلك يجب علينا أن نحرص على وجود هذا المسكن السابق وصفه، ثابتين في الصلاة، قارعين الباب (مت ٧:٧) حتى يفتح لنا الرب هذا المسكن هنا أو في وقت رحيلنا، ولاُ يقال لنا بسبب إهمالنا "لا أعرفكم من أين أنتم" لو ١٣:٢٥.

يجب علينا ليس فقط أن نسأل لنأخذ، بل وأيضًا أن نحفظ ما قد أخذنا، لكن البعض يفقدون ما يأخذونه.

المعرفة المجردة عن الأمور المقبلة والخبرة (لظروفها) يمكن أن يحصل عليها حتى المبتدئون والصغار (إيمانيًا). ولكن الصبر الدائم في ممارسة هذه الأمور يصعب المحافظة عليه حتى بالنسبة للأتقياء والمختبرين، الذين كثيرًا ما يخسرونها بسبب عدم حرصهم، ثم يعودون يطلبونها ويقتنونها مرة أخرى بجهاد عظيم.

هكذا ليتنا نصنع هذا حتى نحصل على نفس العمل فيصبح جزءًا من حياتنا لا نعود بعد نفقده قط.

القديس مار أوغريس البنطي

Evagrius of Pontus

القديس مار أوغريس البنطي[١]
Evagrius of Pontus

قصة حياة أوغريس أو إيفاجريوس Evagrius تمثل صورة حية لقوة التوبة التي ترفع الإنسان من الحياة الساقطة الدنيئة ليصير عضوًا روحيًا فعالاً في حياة الكنيسة، كما تمثل لغزًا أيضًا. فبينما عاش صديقًا وتلميذًا للقديس مقاريوس الكبير، لكنه _إذ اهتم بالتفسير الرمزي والتأمل في الكتاب المقدس مع الكتابة كان له أثره على كثيرين مثل بالاديوس ويوحنا كاسيان ومكسيموس المعترف، مقدمًا لهم الأفكار الأوريجانية الرئيسية. كما سبب انشقاقًا في الحياة الرهبانية، إذ ثار كثيرون من محبي الحياة التقوية البسيطة على منهجه، وحسبوه مفسدًا للرهبنة بأفكاره الأوريجانية الرمزية.

تحدث تلميذه القديس بالاديوس عن سيرته قائلاً: [من غير اللائق أن نعبر في صمت على الشماس الشهير إفجاريوس، رجل عاش في **نظام رسولي** حق. يجب كتابتها لأجل البنيان الروحي لمن يقرأها ولمجد صلاح مخلصنا[٢].]

نشأته

ولد في مدينة ايبورا **Ibora** من أعمال بنطس سنة٣٤٦م. قيل إن أباه كان قسًا[٣] أو خوري أبسكوبوس[٤]. رسمه القديس باسيليوس أسقف قيصرية قارنًا، والقديس غريغوريوس النزينزي شماسًا، ورافق الأخير في المجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية عام ٣٨١م.

في القسطنطينية سلمه القديس غريغوريوس للبطريرك نكتاريوس بوصفه شماسًا بارعًا في دحض كل الهرطقات، فصار واعظًا شهيرًا، عُرف بحمية الشباب في دحض البدع[٥].

رهبنته بجبل نتريا ومنطقة القلالي

في سنة ٣٨٢م ترك القسطنطينية إلى صحراء نتريا ليدرب نفسه بين الرهبان، وقد بقي بها عامين تقريبًا لينتقل إلى منطقة القلالي حتى نياحته عام٣٩٩م...

وقد صار تلميذًا للقديسين المقارين وصديقًا حميمًا لهما. أراد القديس الإسكندري أن يرسمه أسقفًا فرفض. وقد روى لنا القديس بالاديوس قصة رهبنته في شيء من التفصيل، نذكرها في اختصار[٦].

كان إيفاجريوس الشماس مكرمًا جدًا بالقسطنطينية، وكان له عمله الوعظي الفعّال، لكن عدو الخير اقتنصه بالتفكير في إحدى النساء الشريفات، وإذ كان يخاف الله صار يبكي طالبًا من الله أن يحرره من أفكار الشهوة، خاصة وأن السيدة نفسها كانت تحبه جدًا... وفي إحدى الأيام إذ كان يصلي بحرارة رأى كأن جنود الوالي

---

[١] قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، ١٩٨٥، ص ٥٩٤ .

[٢] Palladius: Hist. Laus. ٣٨:١.

[٣] الشماس يوسف حبيب: كشف حيل إبليس للقديس أنبا أوغريس، ١٩٧٨، ص ٥.

[٤] Palladius, ٣٨:٢٥. Ibid.

[٥] Ibid.

[٦] Ibid ٣٨:٤-٧.

ألقوا القبض عليه وقيدوه وألقوه في حبس ووضعوا قيدًا حول عنقه دون إبداء الأسباب، فظن أن ما حلّ به كان بشكوى من زوج المرأة عقابًا له على أفكاره.

اضطرب إيفاجريوس جدًا، لكنه شاهد أيضًا آخرين يحاكمون...، وإذا بالملاك يتحول إلى صديق يتحدث معه وهو مقيد مُساق مع أربعين من المجرمين هكذا:

– لما حُجزت أيها الشماس هنا ؟

– لست أدرِ على وجه التحديد، لكنى أشك أن للوالي شكاية ضدي، وقد امتلأ حسدًا، وأخشى أن يأخذ القاضي نفسه رشوة ويعاقبني.

– اصغِ إلى نصيحة صديق، فإنه لا أمان لك هنا في هذه الليلة.

– أطلب من الله أن يحررني من هذه الضيقة، وإن رأيتني بعد ذلك في القسطنطينية عاقبني دون محاكمة.

– سأقدم لك الإنجيل وتقسم عليه أنك تغادر المدينة، وتهتم بنفسك، وأنا أحررك من الضيقة.

– سأحزم أمتعتي اليوم وأترك المدينة فورًا.

أدرك إيفاجريوس أنه كان في رؤيا، لكنه شعر بالتزام أن يتمم ما تعهد به في الرؤيا، وقام للحال وانطلق بمركب إلى أورشليم، حيث استقبلته الراهبة الرومانية المطوبة ميلانيا[1] Milania.

لكن للأسف كشاب نال شهرة عظيمة فقسى الشيطان قلبه، وعاد إلى أفكار الشر خلال غروره وكبريائه، فسمح له الله بحمى شديدة أنهكت قواه، وقد بقي يعاني منها ستة شهور دون شفاء.

هنا تدخلت القديسة ميلانيا لتسأله: "يا بني، إني حزينة لمرضك الطويل، قل لي: ما في فكرك، لأن مرضك ليس بعسير على الله"، وإذ صارحها بكل شيء قالت له: "ليتك تعدني بالله أن تقصد الحياة الرهبانية، ومع أنني خاطئة لكنني أصلي من أجلك فيهبك الله الشفاء". فوافقها على ذلك، وصلت من أجله... وإذ شفي بعد أيام قليلة انطلق إلى جبل نتريا في مصر ليمارس حياة روحية تقوية جديدة، مجاهدًا بلا انقطاع في نسكٍ شديدٍ مع عبادة ودراسة في الكتاب المقدس وأيضًا النساخة إذ كان خطه جميلاً.

ضيّق عليه شيطان الشهوة الخناق كما قال بنفسه للقديس بالاديوس حتى كان يضطر أن يقف عاريًا في وسط الليل في البرد فيتجمد جسده... وهو يصرخ ويصلي... وكان عنيفًا جدًا مع جسده لتأديب نفسه.

يروي لنا القديس بالاديوس أن ثلاثة شياطين ظهروا للقديس مار أوغريس في شكل كهنة، جاءوا إليه في وسط النهار واختبروا إيمانه، أعلن أحدهم أنه أريوسي، وآخر أنه من أتباع انوميوس (قائد الحركة الأريوسية الجديدة) وثالث أبوليناري (ينكر أن للسيد المسيح نفس بشرية) وقد أفحمهم القديس بكلمات قليلة بعلمه ومعرفته[2].

مع القديس مقاريوس

قال: [إنني مضيت إلى الأب القديس مقار، فسألته عن الأفكار التي يقاتلني بها الشيطان... فلما تحدث معي أضاء وجهه أكثر من ضوء الشمس، ولما لم أستطِع أن أنظر إلى وجهه سقطت على وجهي فبسط يده وأنهضني.]

يبدو أن مار أوغريس كثيرًا ما كان يُحارب بالكبرياء بسبب معرفته وعلمه، إذ قيل إنه لما جاء للقديس مقاريوس مرة يسأله كلمة حياة، قال له: "إنك حقًا تحتاج أن تتزين بالفضيلة، ولكن الأفضل لك إن كنت تستطيع

---

[1] Ibid ٣٨:٨.

[2] Ibid ٣٨:١١.

أن تطرد عنك فخر الكلمة العالمية، وتتمسك بتواضع العشار فتحيا". فقال أوغريس: "إنه لما قال لي هذا عملت له مطانية وانصرفت، وكنت أقول في نفسي إن أفكاري مكشوفة لأنبا مقار رجل الله، وكنت في كل وقت أقابله أرتعد من حكمه الذي سمعته منه".

كما يقول مار أوغريس: [كنت ذات يوم في صحبة القديس مقار الكبير في وقت الظهيرة، وبينما كنت أحترق من شدة العطش استأذنت منه لأشرب ماءً، فأجابني: "أكتفِ بالبقاء في الظل، فإنه يوجد الآن كثيرين من هم مسافرون بالبر أو بالبحر محرومون حتى من هذا الظل المتوفر أمامك". وبينما كنت أحدثه عن الإماتة قال لي: "لقد قضيت عشرين عامًا كاملاً لم أكمل إرادتي في الأكل والشرب والنوم، فما كنت أتناول الخبز إلا بقدر، والماء كنت أشربه بالكيل، أما النوم فكنت استرق القليل منه باستنادي على الحائط على قدر حاجة الجسد".

قال أيضًا إنه لم يمس خضروات أو فاكهة أو عنبًا ولا استحم طوال فترة بقائه في البرية، لكنه تحت الضغط أكل طعامًا مطبوخًا بالنار في السنة السادسة عشر من سكناه في البرية لسوء صحته وضعف معدته. لم يأكل خبزًا إنما كان يكتفي ببعض الأعشاب وحبوب الشعير[١].

أخبر أحد تلاميذه عما سيحدث بعد ١٨ عام، وقد تحققت كلماته.

ضُرب من الشياطين مرات بلا عدد.

روى لنا أيضًا أنه يومًا ما فُقد مفتاح الكنيسة، فرشم على المزلاج علامة الصليب ودفعه بيده، فانفتح وهو ينادي اسم المسيح.

كتاباته

إذ كان يميل إلى التأمل الأوريجاني وجد معارضة شديدة من بعض الرهبان، ولعل هذا هو السبب في فقدان كل كتاباته باللغة الأصلية، فلم تبقَ لنا إلا الترجمات اللاتينية أو السريانية .

ويعتبر القديس أوغريس أول راهب غزير في كتاباته من جهة الكمية ومن أثرها على التقوى المسيحية. فقد كان غالبية الرهبان لا يميلون إلى الكتابة سوى نسخ ما هو لغيرهم، أما القديس أوغريس فارتباطه وحبه لشخصية أوريجينوس، وأفكاره جعله خصبًا في كتاباته... بل واعتبره الدارسون المؤسس للفكر الباطني (السري mystical) الرهباني. تأثر به قادة شرقيون وغربيون مثل بالاديوس ويوحنا كليماكوس وهيسخيوس ومكسيموس المعترف ويوحنا كاسيان وفيلوكسينوس وإسحق أسقف نينوى وغيرهم...

امتدت مدرسته من القرن الرابع حتى الخامس عشر، ولايزال لها أثرها حتى القرن العشرين.

دين سنة٥٥٣م في مجمع بنيقية كأوريجاني، وبقي هذا الاتهام موجهًا ضده أكثر من مرة.

أهم كتاباته هي:

١- "**أفكار الشر الثمانية**"، هذا الفكر أخذه عن آباء برية مصر حيث كانوا يحصرون الخطايا في سبع أو ثمان خطايا. وقد قدم من الكتاب المقدس اقتراحات لمقاومة كل فكر.

في هذا الكتاب أظهر أن الراهب "العامل" هو الراهب الدائم الجهاد.

٢- "**الراهب**"، وضعه في جزئين، الأول يضم ١٠٠ عبارة والثاني ٥٠ عبارة، فيه يتحدث عن عمل الراهب وحياته، مقتبسًا أقوال من آباء الحياة النسكية مثل القديسين أنطونيوس ومقاريوس المصري وأثناسيوس وسيرابيون وديديموس وباسيليوس الكبير

---

[١] Ibid ٣٨:١٢, ١٣.

٣- "**مرآة للرهبان والراهبات**".

٤- "**مشاكل غنوسية**"، يضم ٦٠٠ عبارة في ٦ كتب.

٥- "**عن الصلاة**"، نُسب خطأ لنيلس أسقف أنقرة.

٦- **تفاسير كتابية**، فقد تعلم من أوريجينوس بجانب الفكر السري تفاسير الكتاب المقدس.

٧- له ٦٧ رسالة، منها رسالة إلى القديسة ميلانية.

من كلماته

- تذكر على الدوام ساعة خروجك، ولا تنسى الدينونة الأبدية، فلا توجد في نفسك خطية.
- استبعد التجارب فلا يخلص أحد.
- إذ أبلغه إنسان أن أباه مات، قال له: "كف عن التجديف فإن أبي خالد".

الأب أوغريس الراهب

توجد كثير من الفقرات تخص الرهبان فقط
وبعضها خاصة بالنساك المتوحدين.

(١) قام المتنيح الشماس يوسف حبيب بترجمة ونشر بعض هذه النصوص.

الأب أوغريس الراهب

توجيهات عن
"الجهاد الروحي"

١- توجيهات إلى أناتوليس Anatolius عن
"الحياة العاملة"

١

ما هي المسيحية؟

المسيحية هي شريعة مخلصنا يسوع المسيح، تتضمن ما يخص الحياة، وإدراك الأمور على حقيقتها، ومعرفة الله.

٢

ما هو ملكوت السموات؟

ملكوت السموات هو أن تكون النفس بلا هوى (بلا شهوات) مع معرفة حقيقية لذاك (الإله) الواحد الكائن.

٣

ملكوت الله هو معرفة الثالوث القدوس، ويمتد (هذا الملكوت) قدر ما يتسع الذهن، فيمتلئ بحياة أبدية مطوّبة.

٤

جهاد الحب

ما يحبه الإنسان يرغب فيه بالتأكيد. وما يرغب فيه يجاهد لأجله، فكل سرور تسبقه رغبة، وكل رغبة تبعثها مشاعر فمن ليس له نصيب في هذه المشاعر، يكون قد تحرر من الانفعالات.

٦

لكل عمل وقته المناسب

بالقراءة والسهر والصلاة يُضبط العقل الشارد (المشتت).

وبالجوع والعمل والسكون تنطفئ الشهوة المشتعلة.

وبالترتيل بالمزامير وأعمال الخير والرحمة تهدأ ثورة الغضب.

هذه جميعها يكون لها آثارها إن أُستخدمت في حينها، وبالقدر المناسب. كل شيء يُستخدم في غير أوانه أو بغير القدر اللازم يصير مضرًا أكثر منه نافعًا.

٧

الصوم مع الشكر

عندما تشتهي النفس أطعمة متنوعة، **يلزمها أن تكتفي بالخبز والماء**، فتصير **شاكرة** حتى من أجل خبز. فالشَّرِه يشتهي أطعمة متنوعة، أما الجائع فيهنأ حتى عندما يقتات بالخبز.

١٠

الصوم

من يهرب من الملذات والشهوات العالمية يصير برجًا منيعًا ضد شيطان "التذمر".فالتذمر يسببه الشعور بالحرمان من بعض الملذات الموجودة فعلاً أو المتوقعة. لهذا لا نقدر أن نغلبه مادمنا مربوطين برباطات أرضية. كلما تطلع إلينا الشيطان ورآنا مربوطين بأربطة أرضية، ينصب لنا شباكه ليثير فينا "التذمر".

١١

الغضب

الحقد والكراهية يزيدان لهيب القلب، وأما الرحمة والوداعة فيطفئانه.

١٣

اعتزال الناس ليس علاجًا للغضب

عندما يثار الجزء القابل للإثارة في النفس، لسبب أو آخر، تقدم لنا الشياطين "التوحد" كنصيحة نافعة، لكي به ننزع عنا أسباب الضيق، لكننا لا نكون قد تحررنا (داخليًا) من دافع الغضب.

وبالعكس عندما تلتهب الشهوة فينا، تحركنا الشياطين نحو حب الناس (حب الاختلاط بهم)، وتصوّر لنا الانعزال عنهم بربرية وقسوة، وذلك لكي نلتقي بأجساد أخرى فنشتهيها.

فليتنا لا نصدق الشياطين في شيء، مجاهدين بكل طاقتنا ضد ما يملوه علينا.

١٥

الغضب المقدس والغضب الشرير

عمل الغضب الطبيعي هو شن الحرب ضد الشياطين والصراع ضد كل نوع من أنواع اللذة الشريرة.

فالملائكة تحثنا نحو اللذة الروحية، وتجعلنا نتذوق بركاتها، وتوجّه غضبنا ضد الشياطين.

وأما الشياطين فتجذبنا نحو الشهوات الأرضية، حتى تجعلنا نستخدم الغضب ضد الناس، الأمر الذي يخالف الطبيعة، وهكذا إذ يختل يظلّم ويصير مستهينا خائنًا للفضائل.

١٨

علاج الكآبة (الضجر)

عندما يهاجمنا شيطان الضجر، يلزمنا أن نقسم النفس إلى قسمين: قسم يقدم تعزية، والآخر يتلقاها، باذرين فينا بذار الرجاء الحسن، مرتلين بمزامير داود القائل: "لماذا أنت منحنية في يا نفسي. ولماذا تئنين فيّ؟! ترجّى الله لأني بعد أحمده لأنه هو خلاص وجهي" مز ٤٢:٥.

١٩

الكآبة (الضجر)

في وقت التجربة لا تغادر قلايتك، منتحلاً لنفسك أعذارًا تبدو لك أنها صحيحة، خاصة إن هاجمك شيطان الضجر، الذي هو بالحقيقة أشر جميع الشياطين، لكنه الوحيد من بينهم الذي يقدم للنفس خبرة.

إذا ما هربت أو تحاشيت المعركة، يظل عقلك عديم الخبرة، جبانًا، ويهرب بسهولة.

٢٠

يصعب عليك الهروب من فكر المجد الباطل، لأن كل ما تصنعه لطرده يمكن أن يكون عاملاً مساعدًا لإنشاء دافع جديد نحو المجد الباطل.

هذا والشياطين لا تقاوم دائمًا كل فكر سليم، بل أنها أحيانًا تشجع فينا بعض الأفكار السليمة على رجاء أنها تقدر بعد ذلك أن تخدعنا.

٢١

عذوبة المعرفة لعلاج المجد الباطل

من يتلامس مع المعرفة ويختبر حلاوتها، لا يعود بعد يثق في شيطان المجد الباطل ولو قدم له كل ما في العالم من إغراءات!!

لأنه هل يقدر أن يعده بشيء أعظم من التأمل الروحي؟!!

ولكن إن لم نكن بعد قد تذوقنا المعرفة، فليتنا نحيا حياة الجهاد (العمل) بكل غيرة، ونعلن هدفنا أمام الله، وهو أن كل ما نعمله إنما لكي (نختبر) معرفة الله.

٢٣

حفظ ما نشتهيه في الذاكرة

ما نحتفظ به الآن في الذاكرة مثيرًا للشهوة، لابد أن سبق لنا أن قبلناه بشهوة. وأيضًا ما نقبله الآن بشهوة، يصير موضوع ذاكرة مثيرة للشهوة فيما بعد.

كذلك يجب على الذين يغلبون الشياطين المثيرين للشهوة، أن يدركوا أن الأشياء موضوع إثارة الشهوة ليست في ذاتها أهم من العدو نفسه (الشيطان) غير المادي، إذ هو أخطر مما هو مادي.

٢٤

آلام النفس وشهوات الجسد

تستمد آلام النفس دافعها من الناس، أما شهوات الجسد فتستمد دافعها من الجسد.

يوقف ضبط النفس حركة الشهوات الجسدية، ويوقف الحب الروحي حركة آلام النفس.

٢٥

شيطان الظهيرة

تقف الشياطين التي تثير النفس بإلحاح وتزعج النفس حتى الموت، أما الشياطين التي تثير حركة شهوة الجسد فتتقهقر بأكثر سهولة من الأولى.

أضف إلى هذا أن بعض الشياطين تشبه الشمس المشرقة أو التي تغرب، تلمس جانبًا واحدًا من النفس أو آخر، أما "شيطان الظهيرة" فقد اعتاد أن يغلف النفس كلها ويُغرق الذهن.

لهذا السبب فإن العزلة (الوحدة) مع غلبة الشهوات أمر حلو، إذ لا يعود يبقى منها إلا مجرد ذكريات، أما الحرب (الروحية) فلا تكون بعد شديدة بقدر ما نفكر فيها مليًا.

٢٦

الفكر والشهوات

جدير بالاعتبار أن نفهم إذا كان الفكر هو الذي يجلب الشهوات ويحركها، أم الشهوات هي التي تجلب الفكر.

فالبعض ينادون بالرأي الأول، والبعض ينادون بالرأي الثاني.

ولكن الشهوات عادةً تثار وتعمل عن طريق الحواس، فإذا كان الإنسان محبًا وضابطًا لنفسه لا تثور فيه الشهوات، وإذا لم يقتنِها تثور فيه.

الغضب أكثر احتياجًا إلى أدوية فعالة عن الشهوة.

وُيدعى الحب عظيمًا لأنه يلجم الغضب.

٢٨

المبالغة في النسكيات

ليس من المتاح في كل الأوقات أن نستخدم القوانين والقواعد العادية، بل يجب على الإنسان أن يضع في حسبانه الظروف المحيطة به، ويحاول تنفيذ ما هو مستطاع لديه حسب الإمكانيات التي لديه.

لا تجهل الشياطين هذا، لذلك فإنها في هجومها علينا تمنعنا من أن نعمل حسب طاقتنا، إنما تحرضنا أن نعمل ما هو مستحيل.

فهي بهذا تحرض المرضى على عدم شكر الله من أجل الآلام التي يعانونها، وتحرمهم من احتمال من يخدمونهم بطيب قلب. كذلك **تحث الضعفاء لكي يمارسوا أشق النسكيات**، وتحرك الذين أضناهم (العمر والتعب) لكي يسهروا واقفين على أقدامهم في قراءة التسابيح.

٣١

الخبرة في خداعات الشياطين

من يريد أن يميز الشياطين الشريرة ويعرفها، ويكتسب خبرة وإفرازًا في طرق خداعها، يجب عليه أن يراقب أفكاره، ويلاحظ ما الذي يؤكدون عليه وما الذي يدعونه يعبر سريعًا،

أي الأفكار نشطة؟!

في أي الظروف تكون هكذا؟!

أي الأفكار تتبع الأخرى؟!

أيها لا تتلازم مع بعضها البعض؟!

كذلك يجب عليه أن يطلب العون من المسيح يسوع للخلاص منها جميعًا.

تغتاظ الشياطين جدًا ممن يمارسون الفضائل عن فهم (ملقين ضوءً على كل أمر)، لأن الشياطين تريد أن تصوب سهامها خفية نحو الاستقامة التي في القلب (مز ١:٣.).

٣٣

مفهوم الوحدة

الله الذي وحّد النفس مع الجسد، هو وحده في سلطانه أن يفصل الجسد عن النفس. أما انعزال النفس عن الجسد، فيستطيع ذلك من يجاهد لأجل الفضيلة (في وحدة)، لأن آباءنا عنوا بالوحدة تذكر الموت والهروب من الجسد.

٣٤

الصوم والجسد

الذين يطعمون أجسادهم بإسراف، ويهيئونه لتتميم شهواتهم (رو ١٣:١٤) ليس لهم أن يلوموا أجسادهم بل أنفسهم.

أما الذين صاروا غير شهوانيين، وهم بعد في هذا الجسد عينه، وكانوا نشيطين في التأمل في الله الواحد الكائن حقًا، (وذلك بمعاونة صحة جسدهم) قدر المستطاع، هؤلاء يعترفون بفضل الخالق عليهم (إذ وهبهم هذا الجسد).

٣٥

عندما يبدأ العقل يصلي دون تشتيت ينحصر قتال النهار والليل في الصراع مع الجزء الذي يُثار في النفس.

٣٦

الإنسان غير الشهواني

علامة (اللاهوى)، هي أن يبدأ العقل في رؤية نوره (الداخلي)، وذلك عندما لا يضطرب بسبب الأحلام في النوم، ويفهم الأمور بسهولة (على حقيقتها).

٣٧

ضبط الفكر أثناء الصلاة

عندما لا يتصور الذهن شيئًا من الأرضيات أثناء الصلاة، فهذا يعني أنه قد صار قويًا.

٣٨

التأمل

عندما يقوم العقل بتحقيق نصيب من الحياة العاملة، بمساعدة الله، حتى يبلغ إلى المعرفة (التأمل)، تصير حساسيته للجزء البهيمى من النفس قليلة جدًا أو منعدمة.

المعرفة (التأمل) تسمو بالعقل وتفصله عن كل المحسوسات.

٣٩

النفس المتحررة من ذكر الزمنيات

تصير النفس غير شهوانية، ليس فقط عندما لا تأسرها الأشياء (المقتنيات)، بل لا تضطرب حتى لمجرد ذكرها.

٤١

عظيم هو أن تصلي بدون تشتيت الفكر، وأعظم أن تسبح بالمزامير بلا تشتيت.

٤٢

من يغرس الفضائل في نفسه، ويصير مملوكًا لها بالكامل، لا يعود بعد يذكر الشريعة أو الوصايا أو العقاب، إنما يتكلم ويعمل حسبما تمليه عليه حالته السامية الثابتة فيه.

٤٥

الحكمة وروح التمييز (الإفراز)

تقترن الحكمة بالسكينة (النياح)، ويقترن التمييز الحسن بالعمل.

لا نقدر أن نقتنى الحكمة بدون جهاد، ولا نستطيع أن ننتصر في الجهاد بغير التمييز الحسن.

من عمل "**التمييز الصالح**" أن يصد الغضب الذي تثيره الشياطين، وأن يشدد قوى النفس حتى تعمل هذه القوى قدر المستطاع حسب طبيعتها، وهكذا يمهد التمييز الصالح طريق الحكمة.

٤٦

مفهوم التجربة

التجربة بالنسبة للراهب هي أن يدخل فكر إلى الجانب الشهواني للنفس فيظلم العقل.

٤٧

والخطية بالنسبة للراهب هي قبوله للفكر الشهواني الخاطئ الممنوع.

٤٩

حرب الشياطين

لا تبطل الفضائل محاربة الشياطين ضدنا، بل تحفظنا منها سالمين.

٥٠

الحياة العاملة (لممارسة الفضيلة) هي الطريق الروحي لتنقية الجانب الشهواني للنفس.

٥١

لا يكفي لشفاء قوى النفس شفاءً تامًا الاكتفاء بالأثر المفيد للوصايا، إنما يلزم على العقل أيضًا أن يتمسك بتأملات مناسبة.

٥٣

الحب والخوف

الحب نسل عدم الشهوة، وعدم الشهوة هو زهرة الحياة العاملة التي تقوم بدورها بتنفيذ الوصايا.

خوف الله هو الحارس لممارسة الوصايا، وهو ثمرة الإيمان السليم.

الاعتقاد (الإيمان النظري العقلي البحت) هو صلاح النفس الداخلي، وهو غالبًا ما يوجد حتى عند الذين لا يؤمنون بالله (إيمانًا عمليًا).

٥٥

العقل غير الشهواني

العقل الذي يشن حربًا شهوانية لا يرى تدابير الخصم، وهو في هذه الحالة يكون كمن يقاتل ليلاً (في الظلام).

ولكن عندما يكون العقل "غير شهواني" فإنه يستطيع أن يميز خداعات العدو بسهولة.

٥٦

العمل والتأمل

الحب هو كمال الحياة العاملة. وعلم اللاهوت هو كمال المعرفة. وبدء الاثنين هو الإيمان والتأمل.

الشياطين التي تقاتل الجانب الشهواني من النفس تدعى "أعداء الحياة العاملة"، وأما الشياطين التي تقاتل العقل نفسه فتدعى "أعداء الحق وخصوم التأمل".

٥٩

من يتقدم في الحياة العاملة، تتضاءل عنده الشهوات، ومن يتقدم في التأمل يتضاءل عنده الجهل.

قيل إنه يمكن أن تنتهي الشهوات في وقت ما، لكن الجهل ينتهي في جانب ما ويبقى في جانب آخر.

٦٠

التمييز والنمو الروحي

كلاً من الأمور الصالحة والرديئة التي تصادفنا في الحياة، تساعدنا في الفضيلة كما في الرذيلة. فعمل "الافراز الصالح" هو أن يستخدم هذه الأمور لنمو الأولى وصد الثانية.

٦١

الفضائل وجوانب النفس الثلاثة

النفس حسب معلمنا الحكيم (القديس غريغوريوس أسقف نيصص) لها ثلاثة أقسام:

فإذا كانت الفضيلة في "**الجانب العقلي**" تُسمى حذرًا، وتعقلاً، وحكمة.

وإذا كانت في "**الجانب الذي يشتهي**" تسمى طهارة وحبًا وضبطًا للنفس.

وإذا كانت في "**الجانب القابل للإثارة**" فتسمى شجاعة وصبرًا.

أما إذا كانت الفضيلة في **النفس كلها**، فتُدعى "برًا".

وظيفة "**الحذر**" هو محاربة القوى الغريبة لكي تحمي الفضائل وتطرد الرذائل.

ووظيفة "**التعقل**" أن ينظم بالحق كل شيء ويساعدنا على تحقيق أهدافنا.

ووظيفة "**الحكمة**" هو التأمل في الكائنات الجسدية وغير الجسدية في كل جوانبها.

ووظيفة "**العفة**" هو النظر إلى الأشياء بغير شهوة، وبالأخص بالنسبة للأحلام الدنيئة والرغبات المثيرة.

وعمل "**الحب**" هو أن نحب كل شخص يحمل صورة الله كما تفعل مع المثال (المسيح مثالنا)، حتى ولو حاولت الشياطين أن تحط من قدر بعض الناس في نظرنا.

وعمل "**الصبر والشجاعة**" هو عدم الخوف من الأعداء، واحتمال الآلام بمحض إرادتنا.

أما عمل "**البر**" فهو أن يحفظ كل أجزاء النفس في انسجام وتوافق.

٦٥

محاربة الفكر الشيطاني

الفكر الذي ينبع عن الشياطين ويتباطأ في العقل، تقاومه ثلاثة أفكار وتبدده عندما يتردد في الذهن، وهي:

١. الفكر الملائكي.

٢. الفكر النابع عن إرادتنا متجها نحو ما هو أفضل.

٣. الفكر الذي ينبع عن الطبيعة البشرية. يتحرك حتى في الوثنيين مثل محبتهم لأبنائهم وخدمتهم لوالديهم.

لكن الفكر الصالح يحاربه فكران فقط: الفكر الذي يأتي من الشياطين، والفكر الذي يأتي بإرادتنا الذاتية حينما يتجه نحو ما هو أشر. لأن كياننا البشرى لا يولد أفكارًا شريرة. إذ في البداية لم نكن أشرارًا بل زرع الله في حقله بذورًا صالحة. في ذلك الوقت لم يوجد الشر، وسيأتي أيضًا الوقت الذي لا يكون للشر فيه وجود.

فبذار الفضائل لا تفنى، وأنا مقتنع بذلك بسبب الرجل الغنى الوارد ذكره في الإنجيل، الذي بالرغم من إدانته في الجحيم إلا أنه افتكر بالرحمة في إخوته؛ والرحمة هي أفضل بذار الفضيلة.

٦٩

بمعرفة الله تقوم نفسنا الميتة

ماتت طبيعتنا العاقلة بالخطية، وأقامها المسيح (للتوبة) بتأمل جميع الأجيال (ما كان وما يكون وما سيكون). وقد أقام الآب (أبوه) هذه النفس من موتها بواسطة معرفة الله، حيث تموت النفس موت المسيح، موتًا عن الخطية، وهذا ما عناه قول الرسول: "إن كنا قد متنا معه فسنحيا أيضًا معه" ٢ تي ٢:١١.

٧٠

عندما ينبذ الإنسان آدم العتيق ويلبس الإنسان الجديد، الذي من النعمة، يرى حالته خلال الصلاة كمن ينظر إلى ياقوت أزرق أو جَلَدْ السماء، والذي دعي في الكتاب المقدس "مسكن الله" كما رآه الشيوخ على جبل سيناء (خر ١:٢٤).

٧١

الارتفاع فوق المحسوسات

لا يرى العقل "مسكن الله" في ذاته، ما لم يسمو فوق كل فكر مادي أو أشياء مخلوقة، ولا يقدر أن يسمو فوق هذا إن لم يتحرر من الشهوات التي تربطه بالمحسوسات والتي تثير الأفكار بخصوصها. ويتحرر العقل من هذه الشهوات بواسطة الفضائل، ويتحرر من الأفكار البسيطة بواسطة التأمل الروحي. لكنه يزدرى حتى بهذه (الأفكار البسيطة) عندما يرى بواسطة الصلاة ذلك النور الذي يميز "مسكن الله".

الأب أوغريس الراهب

٢- مقال عن
"الحياة العاملة"

٢٩

اعتاد معلمنا القديس وعظيم الخبرة جدًا أن يقول: يجب على الراهب أن يضع في **نفسه** أنه سيموت غدًا، ويتعامل مع **جسده** كمن يبقى سنوات طويلة.

كما قال إنه بالتفكير الأول يتوقف أفكار الضجر ويلتهب الراهب غيرة، وبالتفكير الثاني يحفظ الراهب جسده في صحة، ويكون دائمًا معتدلاً.

٤٣

حروب الشياطين المتنوعة

يلزم معرفة الاختلافات القائمة بين الشياطين والتعرف على أوقات هجومها. **فمن الأفكار نتعلم أي الشياطين قليلة الهجوم، ومع ذلك فهي خطيرة!! وأي الشياطين دائمة الحرب ضدنا لكنها أقل خطورة من الأولى، وأي الشياطين تباغت الإنسان فجأة وتميل بعقله نحو التجديف.**

كذلك من الضروري أن نلاحظ متى تبدأ الشياطين في عرض موضوعاتها لكي يكون لدينا الوقت لمحاربتها ونتعرف عليها أية شياطين هي، قبل أن نخرج من حالتنا الطبيعية.

بهذه الكيفية ننجح، بعون الله لنا، ونلزمهم بتركنا وهم في غيظ مندهشين منا.

٤٤

توقف الحرب الشيطانية مؤقت

عندما تتعب الشياطين في قتالها مع الرهبان تنسحب إلى حين، وتراقب أي الفضائل يهملونها في هذه الفترة الهادئة، حينئذٍ تهجم عليهم بغتة من هذه الناحية وتسلب النفس المسكينة.

٤٨

محاربة الشعب والرهبان

تحارب الشياطين الشعب (العلمانيين) من واقع الأمور المادية، أما بالنسبة للرهبان فغالبًا ما تقاتلهم عن طريق الأفكار، إذ في البرية ليس لهم ما يملكونه.

ولما كان من الأسهل والأسرع السقوط في الخطأ بالفكر عن السقوط في الخطأ بالفعل، لذلك فإن القتال العقلي أكثر مشقة من القتال الذي يأتي عن طريق الأمور المحسوسة. لأن العقل سريع الحركة ولا يمكن ضبطه بسهولة وأكثر تأثرًا بالتصورات الشريرة.

٤٩

الصلاة الدائمة

لم نأخذ وصية أن نعمل ونسهر ونصوم بلا انقطاع، لكننا أُعطينا وصية أن **نصلي بلا انقطاع**. لأن المجهودات الأولى التي تهدف إلى شفاء الجزء الشهواني من النفس تحتاج إلى الجسد لتنفيذها؛ والجسد لا يقدر أن يعمل باستمرار ولا أن يكون في حرمان (من النوم أو الأكل) على الدوام. أما الصلاة فتنقي العقل وتقويه في الحرب، لأنه خُلق ليصلي حتى بدون الجسد، وليحارب الشياطين لأجل حماية كل قوى النفس.

٥٦

كيف نعرف أننا غير شهوانيين؟

ليتنا نميز علامات اللاهوى عن طريق الأفكار نهارًا، والأحلام ليلاً.

ولنسمي حالة "عدم الشهوة (اللاهوى)" أنها "**صحة النفس**"، و"**المعرفة**" هي غذاؤها. لأنه بالمعرفة وحدها نصير متحدين مع القوات المقدسة، إذ أن اتحادنا مع الكائنات غير الجسدية لا يتم إلا إذا كانت حالتنا تطابق حالتهم.

٥٧

هدوء النفس

توجد حالتان لسلام النفس: الأولى تأتى نتيجة إضعاف شهواتنا الطبيعية وإخمادها. والثانية تأتى من انسحاب الشياطين. الحالة الأولى تكون مصحوبة بالتواضع وانكسار القلب والدموع والأشواق غير المتناهية نحو الإلهيات.

أما الحالة الثانية فتكون مصحوبة بالمجد الباطل والكبرياء. وهذه تستولي على الراهب عندما تنسحب بعض الشياطين من قتاله.

من يحفظ الحالة الأولى يسهل عليه جدًا أن يفطن إلى هجمات الشيطان وحيله.

٥٨

شيطان المجد الباطل يضاد شيطان الزنا. ولا يسوغ للاثنين أن يقاتلا النفس سويًا. لأن أحدهما يعد بالكرامة والشرف، والثاني يجلب العار.

لذلك إذا اقترب إليك أحدهما وبدأ يقلقك،استدعِ إلى عقلك أفكار الشيطان المضاد، فإذا نجحت فيما يقوله المثل عن إخراج مسمارٍ بمسارٍ، فأعلم أنك في الطريق لكي تكون بلاهوى (غير شهواني) إذا أثبت عقلك أنه قادر على إبعاد مشورات الشيطان الخاصة بالأفكار البشرية.

لكن بطبيعة الحال، لو أنك استطعت أن تطرد فكر المجد الباطل بواسطة التواضع، وفكر الزنا بواسطة العفة، فهذه علامة أنك "غير شهواني".

حاول أيضًا أن تفعل هذا مع كل الشياطين وأضدادها واطلب من الله أن يعينك ويساعدك لكي تطرد عنك الأعداء بالمنهج الثاني (الالتجاء إلى التواضع والعفة الخ...)

٥٩

كلما تقدمت النفس ازدادت قوة الأعداء الذين يهاجمونها. وإني لا أظن أن الشياطين المحيطين بها يبقون كما هم بلا تغيير، والذين يراقبون ذلك بدقة التجارب التي تهاجمهم يعرفون ذلك أفضل، ويرون اللاهوى المعتاد بالنسبة لهم يهتز بعنف أكثر **بسبب شياطين جدد** يأتون خلفًا للشياطين القدامى.

٦٠

تبلغ النفس إلى حالة "عدم الشهوة" (اللاهوى) الكاملة عندما تقهر كل الشياطين التي تضاد الحياة العاملة. أما إذا كانت لا تزال النفس تحارب الشياطين دون أنُ تهزم منهم، فإنها لم تبلغ بعد إلى حالة "**عدم الشهوة**" تمامًا.

٦١

ولا يستطيع العقل أن يعبر إلى حالة "عدم الشهوة" (اللاهوى) ولا بلوغ نهاية الطريق في آمان ولا الدخول في عالم غير الجسديين، إن لم يصلح أولاً ما بالداخل. فالاضطراب الداخلي يلزمه العودة إلى الأمور التي تركها وراءه.

٦٢

كلاً من الفضائل والرذائل تعمى النفس. فبالأولى لا ترى النفس الرذائل، وبالثانية لا ترى الفضائل.

الأب مار أوغريس

٣- متنوعات مأخوذة عن
نصوص مختلفة[١]

١

الجحيم هو ظلام الجهل، إذ يحيط بالمخلوقات الحسية عندما تفقد التأمل في الله.

٢

لا يليق بمن يطلب الكرامة أن يكف عن الجهاد اللازم لنوالها.

٣

أتريد أن تعرف الله؟ تعلم أولاً أن تعرف نفسك!

٤

إنه من المتناقض أن يظن إنسان أنه سامٍ وفي نفس الوقت أعماله منحطة.

٥

في كل إنسان، الاعتداد بالرأي يفقده معرفته لذاته.

٦

من ليس فيه صراع مع نفسه، فهو إنسان ورع.

٧

النفس النقية في الله هي إله (تتشبه به).

٨

إن أردت أن تتحرر من "التذمر"، اجتهد أن ترضي الله.

٩

إن أردت أن تعرف حقيقة ذاتك، فلا تنظر إلى ما أنت عليه، بل إلى خلقتك الأصلية.

---

[١] الأرقام هنا غير مرتبطة بالأرقام الواردة في النسخة الروسية.

١٠

النفس المتكبرة وكر للصوص، لا تقدر أن تحتمل كلمة معرفة.

١١

بدون تجارب لا يخلص أحد.

١٢

صلِ بلا انقطاع وتذكر المسيح الذي ولدك ثانية!

الأب أوغريس الراهب

٤- إلى أناتوليس Anatolius عن
"الأفكار الثمانية"

١

توجد ثمانية أفكار رئيسية، عنها تنبع كل بقية الأفكار:

الفكر الأول: الشراهة في الأكل،

الفكر الثاني: الزنا،

الفكر الثالث: محبة المال،

الفكر الرابع: التذمر،

الفكر الخامس: الغضب،

الفكر السادس: الكآبة (الضجر)،

الفكر السابع : المجد الباطل،

الفكر الثامن : الكبرياء.

أما عن كون هذه الأفكار تجعل النفس تضطرب أو لا تضطرب، فهذا لا يتوقف على إرادتنا، إنما بإرادتنا نترك الأفكار تتوانى فينا أو لا تتوانى، وتثير فينا انفعالات أو لا تثير.

٢

يوحي فكر الشراهة للراهب أن يتخلى بسرعة عن حياته النسكية، موهمًا إياه أنه مصاب بمرض المعدة والكبد والصفراء أو أي مرض آخر من الأمراض المزمنة، وأنه يحتاج إلى علاج مع عدم وجود أدوية طبية أو أطباء لعلاجه.

فضلاً عن هذا فإنه يورد إلى ذاكرته الإخوة الذين يعانون من مثل هذه الأمراض فعلاً. بل وأحيانًا يحرك العدو (الشيطان) بعض الإخوة الذين يعانون من هذه الأمراض لكي يزوروا الرهبان الصائمين ويقصون عليهم ما حدث معهم، ويختمون أحاديثهم بأن ما أصابهم لم يكن إلا بسبب حياة النسك الصارمة.

٣

يثير شيطان الزنا الشهوة الجسدية، ويشن هجومه على النساك، ويجاهد لكي يتخلوا عن نسكهم، زارعًا في نفوسهم بأن نسكهم هذا بلا نفع.

فإذا ما استطاع أن يدنس النفس، يبتدئ يهيئها لقول وسماع بعض الأحاديث (الشريرة) حتى يبدو كما لو أن العمل (الشرير) ذاته ماثل أمام أعينهم.

٤

تصور محبة المال (للمجربين بها) طول بقائهم على الأرض، وعدم القدرة على العمل، والجوع، والمرض، ومصاعب الاحتياج والاستجداء من الآخرين لإشباع حاجات الجسد.

٥

يأتي "التذمر" في بعض الأحيان من فقدان ما هو مرغوب فيه، وأحيانًا يأتي كرفيق ملازم للغضب.

فإن كان "التذمر" نابعًا عن فقدان ما هو مرغوب فيه، فإنه يحدث هكذا: تأتي أفكار معينة أولاً، ثم تورد إلى النفس ذكريات خاصة بالمنزل والأهل وطريقة الحياة القديمة، وإذ لا تقاوم النفس هذه الأفكار بل تفرح بها، تبتدئ هذه الأفكار تتسع وتستقر في النفس، وعند ذلك تغرق النفس في "التذمر". لأن ما تتصوره غير موجود، إذ لا يقدر الراهب أن يقتنيه بحكم رهبنته. عندئذٍ يقتنص الشيطان هذه النفس المسكينة ويسقطها في الحزن بقدر ما تنغمس في مثل هذه الأفكار المقلقة.

٦

الغضب أسرع كل أنواع الشهوات. فإن الإنسان يثور ويلتهب ضد من أساء إليه أو من يبدو كمن قد أساء إليه.

١. الغضب يقسي النفس شيئًا فشيئًا.

٢. والغضب يأسر العقل أثناء الصلاة ويورد حالاً للذاكرة صورة المعتدى.

٤. وفي بعض الأحيان يتباطأ الغضب في النفس فينشأ عنه عداوة في القلب.

٥. والغضب يسبب الأحلام (المقلقة)، فيصور له العذابات الجسيمة ومخاوف الموت وهجمات الحيات السامة والوحوش.

هذه المظاهر الأربعة تصاحب ميلاد العداء، وتجلب أفكارًا كثيرة كما يلاحظ كل إنسان واعٍ لنفسه.

٧

وشيطان الضجر، الذي يقال له أيضًا "**شيطان الظهيرة**" مز ٦:٩١، هو أخطر الشياطين. إذ يهجم على الراهب حوالي السابعة الرابعة من النهار (١٠ صباحًا)، ويجعل النفس تدور كما في دوامة حتى الساعة الثامنة من النهار (الساعة ٢ بعد الظهر).

يبتدئ أولاً بأن يجعل الإنسان يترقب الشمس وهو في غم وضيق صدر، فيراها تتحرك ببطيء كأنها لا تتحرك قط، ويبدو كأن ساعات النهار قد صارت خمسين ساعة. وبعدما يتراكم عليه الضجر، يحثه الشيطان لكي ينظر من نافذته، أو يخرج من قلايته يترقب الشمس، وكيف أن الوقت لا يزال الساعة التاسعة. ثم يجعله يحملق هنا وهناك لعله يجد أحد الإخوة القريبين منه خارج (قلايته)، ويثير في داخله الغيظ من المكان الذي يقطن فيه، ومن نمط حياته وعمله، ويضيف إليه هذا الفكر أنه لا توجد محبة بين الإخوة ولا يوجد هنا من يعزيه.

وإذا حدث في هذه الأيام أن أساء إليه أحد، فإن الشيطان يذكره بذلك لكي يزيد من حنقه وغيظه.

بعد ذلك يثير فيه الاشتياق للسكنى في أماكن أخرى، حيث يكون من السهل أن يمارس عملاً آخر أكثر نفعًا لسد حاجاته وأقل قسوة.

ويضيف إليه الشيطان أن إرضاء الإنسان لله لا يتوقف على مكانٍ معينٍ، وأنه يمكننا أن نعبد الله في كل مكان. ثم يربط هذه الأفكار بأفكارٍ أخرى، كأن يذكره بأقاربه والحياة الهادئة الهنيئة الأولى، ثم يتنبأ له بحياة طويلة مملوءة بمصاعب الجهاد النسكي. وهكذا يستخدم كل حيلة وحيلة لكي يخدع الراهب فيجعله ينهي هذه الحياة ويترك قلايته. هذا الشيطان يلحق به شيطان آخر ولكن ليس في الحال.

أما إذا قاوم الراهب هذه الحروب وانتصر، تستقر النفس في سلام وتمتلئ بفرح لا ينطق به.

٨

فكر "المجد الباطل" هو أخبث أنواع الأفكار.

يأتي هذا الفكر للسالكين في حياة البرّ، ويبتدئ الإنسان يمجّد جهاده ويجمع لنفسه مديح الآخرين له. فيتصور فزع الشياطين منه، شفاءه للنساء، ازدحام الجماهير حوله يلمسون هدب ثوبه، وأخيرًا يتنبأ له بتكريسه للكهنوت. وأن الناس يفدون إليه ليجعلوه كاهنًا، وعندما يرفض الكهنوت يقيدونه ويقودوه رغمًا عنه.

بعدما يشعل الشيطان فيه هذه الآمال الكاذبة، ينسحب تاركًا المجال لمحاربات أخرى يقدمها شيطان الكبرياء أو شيطان التذمر، الذي يأتي حالاً ويعرض عليه أفكارًا مضادة لهذه الآمال، حتى أنه في بعض الأوقات يستسلم لأفكار شيطان الزنا، هذا الذي منذ لحظات كان يرى في نفسه أنه قديس وكاهن وقور!!

٩

أما "شيطان الكبرياء" فهو سبب سقوط النفس المحزن للغاية. إنه يشير على النفس ألا تنظر إلى الله كمعين لها، بل تنسب إلى ذاتها كل ما هو صالح. فتبتدئ تنتفخ أمام الإخوة، وتحسبهم جهلاء، لأنهم لا يعرفون منزلتها السامية.

الكبرياء يتبعه الغضب والتذمر. والشر الأخير يتبعه خروج الإنسان عن وعيه والغيظ ورؤية شياطين كثيرة في الهواء.

الأب أوغريس الراهب

٥- تأملات في
"الأفكار الثمانية"

١

كيف نرضي الله؟

توجد خمسة أعمال تساعد على جلب عطية الله:

الأول: الصلاة النقية.

الثاني: التسبيح بالمزامير.

الثالث: قراءة الأسفار المقدسة.

الرابع: تذكر الإنسان خطاياه والموت والدينونة المخيفة.

الخامس: عمل اليدين.

٢

الصلاة السرية

إن كنت وأنت بعد في الجسد لك رغبة أن تخدم الله مثل الروحانيين (الملائكة)، فجاهد أن يكون لك في قلبك صلاة سرية بلا انقطاع، فإنك **بهذا تقترب من أن تتشبه بالملائكة قبل أن تموت.**

٣

كما أن جسدنا عندما تفارقه النفس يصير ميتًا ومملوء نتنًا، هكذا النفس التي بلا صلاة حارة تصير ميتة ومملوءة نتانة.

حرمان النفس من الصلاة أشر من الموت. وقد أوضح ذلك دانيال النبي الذي كان مستعدًا أن يموت ولا يُحرم من الصلاة في أي وقت.

ينبغي على الإنسان أن يتذكر الله، أكثر مما يتنسم الهواء ويستنشقه.

٤

مع كل نفس تستنشقه اذكر اسم يسوع مبتهلاً، مع تذكر الموت وأنت متواضع. هذان التدريبان كفيلان بتقديم نفع عظيم للنفس.

٥

عدم الاهتمام بنظرة الناس

هل تريد أن تكون معروفًا لدى الله؟ حاول قدر المستطاع أن لا تكون معروفًا لدى الناس.

إن كنت دائمًا تذكر الله الذي يرى كل أفعال النفس والجسد، فإنك لا تخطئ بأي نوع، ويكون الله رفيقًا لك.

٦

بالرحمة تتشبه بالله

لا شيء يجعلنا مشابهين لله مثل فعلنا الخير للآخرين. لكن في عمل الخير يجب أن يحترس الإنسان جدًا ألا تتحول أعمال الخير هذه إلى فكر مجرد.

٧

إذ لا تصنع شيئًا لا يليق بالله، تصير في النهاية مستحقًا لله.

٨

إن كنت بالفضائل تطبع شبه الله عليك، بهذا تقدم كرامة مجيدة لله.

٩

كلما اقترب البشر إلى الله يصيرون إلى حال أفضل.

١٠

الإفراز الصالح

الإنسان الحكيم العاقل الذي يقدم المجد والعبادة لله يكون معروفًا من الله، لهذا فإنه لا يضطرب أبدًا لو بقى مجهولاً من الناس.

إن عمل "**الإفراز الصالح**" هو توجيه الجانب من النفس الذي يكمن فيه الغضب نحو الحرب الداخلية.

وعمل "**الحكمة**" هو أن تحث العقل على السهر الدائم الواعي.

وعمل "**البر**" هو توجيه الشهوة نحو الفضيلة والله.

وأخيرًا فإن عمل "**الشجاعة**" هو أن نسيطر على الحواس الخمس، ولا نسمح لإنساننا الداخلي (الروح) والخارجي (الجسد) أن يتدنسا من خلال هذه الحواس.

١١

النفس كائن حي، بسيط، لاجسدي، غير منظور بالعين الجسدية، غير مائت، وهب له الذهن والعقل. **العقل بالنسبة للنفس كالعين بالنسبة للجسد.**

١٣

لا كيان للشر!

ليس للشر كيان روحي، بل هو غياب الخير. كالظلمة التي ليس لها كيان، إنما هي غياب النور.

٢٠

اشغل نفسك بالقراءة بروح هادئ، فيرتفع عقلك دائمًا ليتأمل في أحكام الله العجيبة، ترتفع كما بيدٍ ما ممتدة إليه.

٢٢

يمكن بواسطة نعمة الروح القدس، مع العمل والجهاد أن توّحد كل النفس وتجمع في داخلها الصفات التالية:

الكلمة مع الذهن،

العمل مع التأمل،

الفضيلة مع العلم (المعرفة)،

الإيمان مع المعرفة المتحررة من كل نسيان،

ويتحقق هذا بطريقة لا تكون فيها أية صفة من هذه الصفات أسمى أو أقل من زميلتها. عندئذٍ تتحد النفس بالله وحده، الذي هو صالح وحق.

٦- تعليمات إلى
رهبان في المجمع (حياة الشركة)
وآخرين

٢

الإيمان هو بداية الحب، وأما نهاية الحب فهو معرفة الله.

٤

صبر الإنسان يلد الرجاء، والرجاء الصالح يمجد الإنسان.

٥

من يقمع جسده بحكمة يصير بلا شهوة (بلا هوى)، لكنه عندما يطعم جسده (بإسراف) يعانى من الشهوة.

٧

السكون (الانفراد) مع الحب ينقيان القلب، بينما الهروب من الناس مع البغضة يهيجان القلب.

٨

خير لك أن تبقى بين ألوف من البشر وقلبك محب، عن أن تختفي في الكهوف بمفردك وفيك كراهية.

١٨

من يعصى ناموس الله يهين الله، ومن يطيعه يمجد خالقه.

٢٠

حيثما تدخل الخطية يلازمها الجهل، أما قلوب المستقيمين فمملوءة معرفة.

٢١

الفقر ومعه معرفة، خير من الغنى ومعه جهل.

٢٢

زينة الرأس العليا هي الإكليل، وزينة القلب السامية هي معرفة الله.

٢٣

من يصلى فغالبًا ما يهرب من التجربة، أما قلب المهمل فيضطرب بالأفكار.

٤٣

إن هاجمك روح الضجر، لا تترك قلايتك.

وإن هاجمك روح "التذمر" لا تبقى على انفراد. لأنه كما أن الفضة تتنقى بالاحتكاك، هكذا تنير قلوبكم إن ثبتم في الجهاد.

٤٤

روح الضجر ينزع الدموع، وروح التذمر يخنق الصلاة.

٥١

يسبق الحب اللاهوى وتسبق المعرفة الحب.

٧٥

لتمجد الله، عندئذٍ تعرف ما هو ليس جسديًا. اخدمه عندئذٍ يظهر لك فهم الأجيال (جميعها).

٧٦

جسد المسيح هو الفضائل العاملة،

من يذقها يتحرر من الشهوات.

٧٧

دم المسيح هو تمييز الأفعال،

من يشربه يستنير.

٧٨

حضن الرب هو معرفة الله، من يستريح فيه يصير لاهوتيًا.

٧٩

عندما يلتقي ذاك المملوء معرفة بذاك الذي يمارس للصلاح يكون الرب بينهما.

٧- عن
"الأفكار الشريرة الأخرى"

١

شياطين في المقدمة وأخرى خلفها

من بين الشياطين التي تهاجم أولئك الذين يحيون حياة عاملة نشطة، تلك التي **تتقدم المعركة** وهي:

١. شياطين توكل إليها **الشهوات** أو إثارة **النهم**.

٢. شياطين تزرع فينا **محبة المال**.

٣. شياطين تحثنا نحو طلب **مجد بشرى**.

أما بقية الشياطين **فتقف خلفها** لتتسلم المصابين الذينُ يجرحون بإحدى هذه الشهوات الثلاث.

لأنه يستحيل على الإنسان أن يسقط في الزنا ما لم يسقط أولاً في شراهة الأكل.

أو أن يُثار بالغضب ما لم يكن طامعًا يقاتل من أجل الطعام أو المال أو الشهرة.

ومن المستحيل عليه أن يتجنب قتال "التذمر" ما لم يكن قد سبق له أن احتمل الحرمان من هذا كله.

ويستحيل عليه أن يهرب من الكبرياء، ما لم يكن قد استأصل من قلبه محبة المال التي هي أصل كل الشرور (١ تي ٦:١٠)، لأنه بحسب سليمان الحكيم: "الفقر يضع الإنسان".

باختصار، لا يمكن أن يسقط إنسان تحت سلطان أي شيطان ما لم يكن قد جُرح أولاً بأحد هؤلاء الشياطين الثلاثة. وهذا هو السبب الذي جعل الشيطان يقترح على الرب تلك الأفكار الثلاثة:

الأول: عندما سأله أن تصير الحجارة خبزًا.

الثاني: عندما وعده بجميع ممالك الأرض إن سجد له الرب وتعبد له.

الثالث: عندما زعم أنه إن أصغى إليه يمكنه أن يتمجد دون أن يصيبه ضرر، وذلك بأن يلقى بنفسه من على جناح الهيكل.

ولكن الرب الذي هو أسمى من هذا كله، أمر الشيطان أن يذهب بعيدًا عنه، مظهرًا لنا أننا لا نقدر أن نقهر الشيطان ما لم نحتقر هذه الأفكار الثلاثة.

٢

ادرس الأفكار والتصورات الواردة إلى عقلك!

جميع الأفكار التي تبعث بها الشياطين، تُدخل إلى النفس صور أشياءٍ حسية. فإن قبل العقل انطباعاتها، يتأمل مفكرًا فيها.

لهذا نستطيع أن نفهم أي شيطان يقترب إلينا، بمعرفتنا موضوع الأفكار التي تشغلنا.

مثال ذلك إذا جاءت إليّ صورة إنسان قد أساء إليّ أو نالني عن طريقه ضرر، أعرف أن شيطان الحقد يقترب مني.

كذلك إذا تذكرت المال أو الشهرة، فإنه ليس بالصعب أن أفهم أي شيطان يضايقني عن طريق موضوع تفكيري.

وهكذا أيضًا في سائر أنواع الأفكار.

وإنني لا أعني بهذا أن كل التصورات لمثل هذه الأمور تأتي من الشياطين. لأنه أمر طبيعي أن ترد إلى العقل صور الحوادث القديمة. لكن التصورات التي تأتي من عدو الخير هي **تلك التي تسبب فينا الإثارة أو الشهوات بطريقة غير طبيعية**. وبسبب (هذه الإثارة) واضطراب القوى الداخلية، يرتكب العقل الزنا أو المشاحنات، ولا يعود بعد قادرًا على الاحتفاظ بالتفكير في الله واهب الشريعة. لأن مثل هذه الاستنارة (أي هدوء الفكر في الله) تظهر العقل الحر الأصيل، عندما تقطع جميع الأفكار المتعلقة بالأشياء (الزمنيات) أثناء الصلاة.

٥

احذر الغضب

نحن نساعد الشياطين في تحقيق أهدافها وكل مشوراتها الخبيثة، مساعدة عظيمة، **عن طريق انفعالاتنا وتهيجنا (الغضب)**، متى حدثت بطريقة تخالف الطبيعة (أي تحدث في غير الهدف الموضوعة له).

لذلك فإن الشياطين لا تترك أية فرصة لكي تقاتلنا بالليل والنهار. فإذا ما رأتنا أننا نقيدها بواسطة التواضع، تحل هذه القيود (التي للتواضع) بأن تبث فينا أي إدعاء يبدو في المظهر صحيحًا، فإذا ما ثارت نفوسنا تجد الفرصة لزرع أفكارها البهيمية فينا. لذلك يلزمنا ألا نثير هذه المشورات والرغبات في داخلنا، سواء بأسباب صحيحة أو غير صحيحة، حتى لا نعطي (للشياطين) التي تحرضنا على الشر سلاحًا خطيرًا.

لكنني أعلم أن كثيرين يفعلون هذا (أي يثورون) لأتفه الأسباب، فيصيرون مشتعلين (بالغضب) غير مبالين بما هو لنفعهم.

اخبرني لماذا يحدث هذا؟ هل كنت تأخذ الموقف الثائر (الهيجان والغضب) لو أنك تزدرى بالطعام والمال والشهرة؟!

لماذا تطعم الكلب (أي الجسد) إن كنت قد تعهدت ألا تقتنى شيئًا؟!

أليس في نباح الكلب وهجومه على الناس كشف على أن بداخلك شيئًا تريد الاحتفاظ به؟!

إني واثق أن مثل هذا الإنسان (الذي يغضب بسبب انشغاله بشيء في داخله) بعيد عن الصلاة النقية، لأنه معروف أن الغضب يفسد مثل هذه الصلاة.

إني أعجب كيف ننسى أقوال القديسين، فداود النبي يصرخ قائلاً: "كف عن الغضب واترك السخط" مز ٨:٣٧. والرسول يأمرنا أن تُرفع في كل مكان أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال (١ تي ٨:٢). وقد كانت العادات القديمة تحتم **أن يطرد الإنسان الكلاب عن البيت أثناء الصلاة (أو عن مكان الصلاة)، لأن هذا يعني رمزيًا طرد الغضب أثناء الصلاة**؛ بل زعم أحد الحكماء الوثنيين أن الآلهة لا تأكل الصفراء (المرارة) أو عظام الفخذ. وأنا لا أظن أنه كان يفهم ما يقوله، لكن في رأيي أن الصفراء تشير إلى الغضب، وعظام الفخذ إلى الشهوات.

٧

مصادر الأفكار

بالملاحظة الطويلة وجدنا فارق بين الأفكار التي تأتي من الملائكة والأفكار التي تأتي من الناس والأفكار النابعة عن الشيطان، ذلك الفارق هو:

تعمل **الأفكار التي من الملائكة** على كشف طبيعة الأشياء ومفاهيمها الروحية. كأن تكشف عن:

لأي غرض وُجد الذهب؟!

ولماذا هو مبعثر كالرمل في الأودية؟

ولماذا يحصلون عليه بمشقة كبيرة وجهاد؟

وكيف أنه عند اكتشافه لا يغسل بماء بل بنار، وبعد ذلك يوضع بين أيدي صناع يصيغون منه شمعدانات ومجامر لبيت الله (٢ أخبار ٤:١٩-٢١)، تلك الأواني التي بنعمة الله لم يكن ملك بابل قادرًا على استخدامها الشخصي له (دا ٥:٣)، لكن كليوباس يقدم قلبًا ملتهبًا بهذه الأسرار (لو ٢٤:٣٢).

أما **الفكر النابع عن الشياطين** فلا يعرف هذا ولا يفهمه، لكنه بدون حياء يعرض فقط تملك الذهب، موهمًا إيانا بالسرور والمجد اللذين نحصل عليهما باقتنائنا للذهب.

أما **الفكر البشرى** (المجرد) فإنه لا يطلب حيازة الذهب ولا يشفف نحو فهم المعاني (الروحية لوجوده واستخدامه للخير...)، إنما يقدم للذهن صور الذهب دون شهوات ولا مطامع.

وإذا طبق الإنسان بعقله هذا الأمر في الأمور الأخرى (غير الذهب) فسيجد نفس الشيء.

٨

الفكر الجوَّال

يوجد فكر يليق بنا أن ندعوه "الجوَّال Wanderer". يأتي هذا الفكر غالبًا للإخوة في نهاية الليل، حيث يطوف بالعقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، ومن بيت إلى بيت.

يقود هذا الفكر العقل في بدايته إلى مجرد أحاديث بسيطة، لكنه إذا ما انجذب الإنسان إلى أحاديث طويلة مع بعض معارفه القدامى، يفسد حاله حسب صفات من يلتقي بهم (فكريًا). وعلى هذا فإنه يسقط رويدًا رويدًا من الشعور بوجود الله ومعرفة الله ومن الفضيلة وينسى دعوته وتعهداته.

من أجل هذا يجب على المتوحد أن يراقب هذا الشيطان، ويلاحظ من أين يأتي، وما هي الأمور التي يأتي بها، لأنه لا يجول بهذه الدورة الواسعة بلا هدف، بل يفعل هذا لكي يقلق حال المتوحد، حتى إذا ما التهب العقل بكل هذه الأشياء، وسكر بأحاديث كثيرة، يسقط فجأة تحت سلطان شيطان الزنا أو الغضب أو التذمر، هذه التي هي أكثر (الشياطين) ضررًا لاستنارة العقل.

إذا أردنا أن تزيد معرفتنا بخداع هذا الشيطان، يلزمنا ألا نقاومه للحال، ولا نظهر للآباء كيف يقيم الأحاديث فينا وبأية طريقة يسبى عقلنا تدريجيًا إلى مملكة الموت، لأنه عند ذلك يهرب سريعًا إذ لا يطيق أن يحتمل كشف حيله أمام الآخرين، وبالتالي لا نتعلم شيئًا من الأمور التي كنا نود أن نتعلمها، لكن لنسمح له بالأحرى أن يقدم تمثيليته حتى ختامها في اليوم الثاني أو الثالث، حتى نعرف كل طرقه الخبيثة، وعند ذلك نكون قادرين على أن نجعله يهرب بكلمة رفض واحدة.

وإذ يكون العقل في أثناء التجربة عادة مضطربًا، ولا يستطيع أن يرى بوضوح ما يحدث فينا، لذلك عليك أن تتبع الآتي عندما يسحبك الشيطان:

اجلس مع نفسك وتذكر ما حدث لك، من أين ابتدأت وإلى أين بلغت؟ ومن أي موضع تمَّلك عليك روح الزنا أو التذمر أو الغضب؟ وكيف تسلسلت الحوادث معك بعد ذلك؟!

ادرس هذا جيدًا وقدمه لذاكرتك، حتى تستطيع أن تكشفه عندما يعود إليك ثانية.

لاحظ أيضًا المكان الذي كان يخفيه، ولا تعود تسلكه مرة أخرى.

بعد هذا كله إن كنت تود أن تثيره، افضحه للحال عندما يتقدم إليك مرة أخرى، وأذكر على شفتيك المكان الأول الذي دخلت إليه (بعقلك عندما كان يجول به في المرة الأولى) ثم المكان الثاني والثالث، فإنه لا يحتمل الفضيحة، ويغتاظ بشدة.

سيكون هروب الفكر عنك دليلاً على فائدة معالجته بهذه الطريقة، إذ لا يقدر أن يثبت أمام هذا الكشف الفاضح لحيله.

بعد نصرة هذا الشيطان يحل نعاس عظيم، مع ثقل الجفون وشعور بالبرد وتثاؤب كثير زائد عن الحد وضعف الكتفين، ولكن **بالصلاة يبدد الروح القدس كل هذه الأعراض.**

١٦

رعايتك لقطيع الأفكار

يعهد الرب للإنسان بأفكار هذا الزمان، كما يعهد الغنم إلى الراعي الصالح، معطيًا إياه "الغيرة والغضب" ليساعداه في الرعاية.

فالغضب يبدد أفكار الذئاب (الشياطين)، وبالغيرة (الشوق) من كل القلب يحب الغنم (أي الأفكار الصالحة)، ويقوتها محتملاً من أجلها الأمطار الكثيرة والرياح الشديدة.

علاوة على هذا، يعطيه الرب وسيلة الرعاية للغنم (الأفكار الصالحة) ويهبه المراعى الخضراء وماء الراحة (مز ١٢:٢٣)، والتسبيح بالمزامير، والقيثارة، والعصا، والعكاز حتى يستطيع الإنسان أن يجد (برعايته) للقطيع طعامًا وثيابًا ويجمع عشب الجبل (أم ٢٥:٢٧)، إذ مكتوب "من يرعى رعية ومن لبن الرعية لا يأكل؟!" ١ كو ٧:٩.

لهذا يجب على المتوحد أن يحرس قطيعه (أفكاره الصالحة) ليلاً ونهارًا؛ حتى لا تفترس الوحوش خروفًا واحدًا، ولا يقع أحدها في أيدي اللصوص. وإذا حدث هذا في مكان مقفر، يجب عليه أنْ يخَّلص الحمل في الحال من فم الأسد أو الدب (١ مل ٣٤:١٧،٣٥).

ووحوش البرية هي مثل:

فكر عن أخ يولد فينا الكراهية من جهته؛

أو عن امرأة يدفع بنا إلى الشهوة من جهتها،

أو فكر من جهة الفضة والذهب متى سكن فينا مقترنًا بالجشع والطمع،

بل أحيانًا أفكار المواهب المقدسة إذا رسخت في العقل قد تدفع بنا إلى المجد الباطل.

وهكذا بالنسبة لسائر الأفكار متى سُلبت بالشهوات.

لهذا يلزمنا أن نحرس قطيعنا، ليس فقط في النهار بل وبيقظة في الليل أيضًا. فإنه قد يحدث أن إنسانًا يحلم أحلامًا مخجلة وخادعة، عن طريقها يفقد كل ما يملكه (من أفكار صالحة). وهذا ما تعنيه كلمات يعقوب

"فريسة لم أحضر إليك... من يدي كنت تطلبها، مسروقة النهار أو مسروقة الليل، كنت في النهار يأكلني الحر وفي الليل الجليد، وطار نومي من عيني" تك ٤،٣١:٣٩..

وإذا ما أنهكنا العمل (في حفظ الأفكار الصالحة) نسقط في اليأس، لهذا **ليتنا نسرع إلى صخرة المعرفة ونتلو المزامير ونعرف الفضائل على أوتار القيثارة المعرفة.**

لنحفظ غنمنا سالمًا في جبل سيناء، حتى ينادينا إله آبائنا من وسط العليقة المتقدة بالنار (خر ٣:١-٤) ويمنحنا قوة لصنع الآيات والمعجزات.

١٩

تجارب الأفكار

تجرب بعض الشياطين النجسة الإنسان كإنسانٍ، وبعضها كحيوانٍ أبكم.

النوع الأول (من التجارب) يبث فينا أفكار المجد الباطل أو الكبرياء أو الحسد أو الدينونة، هذه التي لا تصيب أي حيوان أبكم.

أما **النوع الثاني** فيثير فينا الغضب والشهوة، وهذه الأمور نشترك فيها مع الحيوانات غير الناطقة، وهي مخيفة، تحط من الطبيعة العاقلة.

من أجل هذا يقول الروح القدس بالنسبة للأفكار التي تأتى للإنسان كإنسان: "أنا قلت لكم أنكم آلهة وبنو العلي كلكم، **لكن مثل الناس تموتون**، وكأحد الرؤساء تسقطون" (مز ٨٢:٦، ٧).

أما بالنسبة للأفكار التي تتحرك في الإنسان كحيوان أبكم فيقول: "لا تكونوا كفرسٍ أو بغلٍ بلا فهم، بلجام وزمام زينته يُكَمُّ لئلا يدنو إليك" (مز ٣٢:٩).

٢٠

كيف تعالج جراحاتك؟

متى حاربك عدو الخير، وأصابك بجراحات، وتريد أن يرتد سيفه إلى صميم قلبه، كما يقول الكتاب المقدس (مز ٣٧:١٥)، افعل ما نخبرك به.

حلل في نفسك الفكر الوارد إليك: ما هو؟ ومما يتكون؟ وما الذي يؤثر منه على عقلك؟

مثال ذلك: لو أن فكرة محبة المال عُرضت عليك، ابتدئ في تحليلها من جهة: العقل الذي قبل الفكرة، والفكرة ذاتها، كالتفكير في الذهب: الذهب ذاته، شهوة محبة المال.

بعد ذلك اسأل: أي من هذه خطية؟!

هل هو العقل؟ ولكن كيف يكون ذلك وهو على صورة الله؟!

هل فكرة الذهب؟ لكن الإنسان العاقل لا يقول بهذا، لأنه هل الذهب في ذاته خطية؟ إذن لماذا خلقه الله؟

وعلى ذلك ترجع الخطية إلى الحالة الأخيرة، وهي شهوة محبة المال، التي ليست هي مجرد المادة ذاتها... ولا معرفة المادة إنما الشهوة النابعة عن إرادتنا وتحث العقل على إساءة استخدام خليقة الله، تلك الشهوة التي تأمرنا الوصايا الإلهية بقطعها.

فإن صنعت هذا، **يبطل الفكر بتحليله إلى أجزاء، ويهرب الشيطان حالما ترتفع أفكارك على أجنحة المعرفة.**

فإن لم ترد أن يدخل سيفه إلى قلبه، بل أردت أولاً أن ترشقه بسهم من عندك، فخذ حجرًا من حقيبة رعايتك وتأمل في الآتى: كيف أن الملائكة والشياطين لهما تأثير على عالمنا، وأما نحن فلا نؤثر عليهما، ذلك لأننا لا نقدر أن نزيد الملائكة اقترابًا إلى الله، ولا أن نجعل الشياطين أكثر نجاسة.

فكر أيضًا في الآتي، وهو: كيف أن لوسيفورس الذي نهض في الصبح سقط من السماء (أش ١٤:١٢)؟! "يجعل العمق يغلى كالقدر النحاسى، ويتطلع إلى البحر كقدر دهن، والأجزاء السفلى من العمق كمسبي، ويعتبر العمق كمرعاه" أي ٢٣،٤١:٢٢؛ فانه يربك الكل بمكره ليسود على الجميع.

التأمل في هذه الأمور يسبب للشيطان جراحات خطيرة ويدفع بجيشه جميعه إلى الهروب. لكن لا يقدر أن يسلك هكذا إلا الذين بلغوا درجة من النقاوة، ووصلوا إلى إدراك أسباب هذه الظواهر. فإن غير الأنقياء لا يعرفون كيف يتأملون في هذه الأمور، بل يتعلموا من الآخرين كيف يقاومون العدو، فإن صوتهم لن يسمع، لأنهم في وقت القتال يكون كل ما بداخل نفوسهم مضطربًا، وتثير آلام النفس في داخلهم سحبًا من الغبار.

انه بلاشك من الأمور الأساسية أن تقف جميع القوات المعادية بلا حراك حتى لا يتقدم لمحاربة داود سوى جليات وحده (أي يحاربنا شيطان واحد أولا). وهكذا عندما تأتى إلينا أفكار أخرى شريرة علينا يلزمنا أن نستخدم طريقة التحليل (السابق ذكرها) وأيضًا هذا النوع من الحرب.

٢١

عندما تكف بعض الأفكار الشريرة عن محاربتنا تمامًا، علينا أن نبحث عن سبب هروبها حتى نعرف ما إذا كان العدو لا يقدر أن يسبب لنا ضررًا لعدم قبولنا اقتراحاته علينا بالتنفيذ، أم بسبب عدم تحرك آلام النفس فينا.

مثال ذلك لو تخيل متوحد أنه قد وكّل إليه أمر القيادة الروحية لمدينة كبيرة، ثم ما لبث أن زال الفكر سريعًا، فإن سبب زواله هي السبب الأول (عدم إمكانية تنفيذه).

لكن إذا تخيل إمرىء ما (في كبرياء وتشامخ) أنه سيصبح حاكمًا لمدينة معينة (وكان هذا ممكنًا) وعالج هذا الشخص هذه الفكرة (نزع تشامخه)... فهذا يعني أنه قد تحرر من آلام النفس (الكبرياء).

وإذا استخدمنا طريقة البحث هذه في حالة ورود الأفكار الأخرى إلينا، فإننا نكتشف (سبب هروب هذه الأفكار عنا بمثل هذه السرعة). يلزمنا أن نعرف هذا حتى تلتهب غيرتنا ويتزايد جهادنا، لأننا **بهذا نعرف إن كنا قد عبرنا نهر الأردن وأصبحنا قريبين من مدينة النخيل (تث ٣:٣٤)، أم لا نزال في البرية يهاجمنا الغرباء (الشياطين).**

٢٢

تجاوب الداخل مع الأفكار الخارجية

تتأصل فينا الأفكار الشريرة بسبب الآلام (الشهوات) التي تدفع بالعقل إلى الهلاك والدمار.

فكما أن صورة الخبز تتمثل في ذهن الإنسان الجائع، ويطول بقاؤها فيه بسبب الشعور بالجوع، وتتمثل صورة الماء في ذهن الظمآن، هكذا أيضًا تتمثل صورة المال والأفكار القبيحة التي تتولد من كثرة الطعام الدسم الزائد، ويطول بقاء هذه الصور في مخيلتنا بسبب الشهوات (التي تتناسب معها).

وينطبق هذا الأمر عينه على أفكار المجد الباطل وغيره...

ولكن من يستحيل على العقل الذي تطارده مثل هذه الأفكار أن يظهر أمام الله مزينًا بتاج البر. لأنه الذين اعتذروا عن حضور الدعوة إلى عشاء معرفة الرب كانوا مضطربين بهذه الأفكار الثلاثة، كما ورد في المثل المذكور في الإنجيل (لو ١٤:١٨-٢.). كذلك الإنسان الذي قُيد من يديه ورجليه وطُرح إلى الظلمة الخارجية، كان **متشحًا بثوب منسوج بمثل هذه الأفكار، ذلك الثوب الذي اعتبره السيد صاحب الدعوة لباسًا غير لائق لحفل العرس (مت ٢٢:١١-١٣).**

أما ثوب العرس فهو حالة اللاهوى لدى النفس العاقلة التي ترفض الشهوات العالمية.(أي يصير الإنسان غير شهواني)...

٢٧

هل تعرف الشياطين أفكارنا؟

لا تعرف الشياطين ما في قلوبنا كما يظن البعض، لأن الذي يعرف قلوب الناس هو الله الذي وحده يفهم عقل الإنسان (أي ٢.:٧)، والذي خلق قلوبهم (مز ٣٣:١٥).

إنما تعرف الشياطين الكثير من الحركات التي تدور في القلب عن طريق الكلمات التي يُنطقها أو بعض حركات الجسم.

فإذا فرضنا أننا في أثناء الحديث حقَّرنا أولئك الذين تكلموا علينا بسوء، تستنبط الشياطين من هذه الكلمات أننا قد اتخذنا موقفًا معاديًا من هؤلاء الناس، فتنتهز هذه الفرصة لتُدخل إلى نفوسنا أفكارًا شريرة إزاءهم. فإن قبلنا هذه الأفكار، نسقط عندئذٍ تحت نير شيطان الغضب الذي يحرضنا على الدوام لننفذ أفكارًا انتقامية ضدهم.

لهذا يوبخنا الروح القدس بحق قائلاً: "تجلس تتكلم على أخيك، لابن أمك تضع معثرة" مز ٥٠:٢٠. أي أنك **تفتح بابك لأفكار الغضب، وتزعج ذهنك أثناء الصلاة، بتصورك وجه عدوك بصفة دائمة.** هكذا تصيره إلهًا لك، لأن ما يتصوره العقل بصفة مستمرة أثناء الصلاة يجب أن يعترف به بمثابة إله له.

لذلك يلزمنا أن نتجنب الحديث الخبيث، ولا نحتفظ بأية ذكرى سيئة ضد أي شخص، ولا تكتئب وجوهنا عند تذكرنا لأخ لنا، لأن **الشياطين الخبيثة تراقب حركاتنا باهتمام، وتكتشف جميع الأشياء التي يمكن استخدامها ضدنا سواء في جلوسنا أو نهوضنا أو وقوفنا أو سيرنا أو في كلامنا أو في نظراتنا، لأنها دائما تحب الإستطلاع وتنصح بالغش اليوم كله (مز ٣٨:١٢) حتى في أثناء الصلاة، حتى تخزى العقل المتواضع وتطفئ نوره المبارك.**

الأب دورُوثيوؤس

الأب دوروثيؤس

عاش الأب دوروثيؤس في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع، وقد قضى شبابه المبكر مجتهدًا في دراسته للعلوم الزمنية. وفي نهاية تعليمه عاش قليلاً في بلدته مسقط رأسه، التي لا تبعد كثيرًا عن دير الأب سيريد **Serid**، ربما في اسكالون أو غزة. وقد كان غنيًا جدًا.

كوَّن بسرعة علاقة مع الأب العظيم برصنوفيوس والناسك يوحنا، وبفضل تعاليمهما زهد كل شيء واختار الرهبنة في دير الأب سيريد، حيث أدّباه هناك، وكان تحت إرشادهما، وبالأخص الناسك يوحنا، حتى أكمل دراسته الرهبانية.

أطاع دوروثيؤس أباه الذي أوكل إليه العمل في مكان الضيافة (خدمة الغرباء) ثم عاد فأوكل إليه الخدمة في مكان المرضى.

وبعد نياحة الأب سيريد والناسك يوحنا، حيث كان الأب العظيم برصنوفيوس معلم الجميع قد حبس نفسه في قلايته حبسًا مطلقًا (لا يقابل أحدًا)، ترك الطوباوى دوروثيؤس دير الأب سيريد وصار أبًا لأحد الأديرة الأخرى.

ربما ترجع عظاته التي قدمها لتلاميذه إلى هذه الفترة، وهي ٢١ عظة في مجموعها، بخلاف القليل من الرسائل. وهذا هو كل ما تُرك لنا من كتابات هذا الأب، هذا الذي أضاء نور تعاليمه ليس بين الأديرة فحسب، بل وبين المسيحيين عامة.

أما تاريخه فغير معروف.

الأب دوروثيؤس

توجيهات بخصوص
التداريب الروحية

١

الخطايا والشهوات

قدم لنا الله في حنو محبته وصايا مطهرة، حتى أننا، إن أردنا، نقدر بمراعاتنا للوصايا أن نتطهر، لا من الخطايا فحسب، بل ومن الشهوات أيضًا، لأن الخطايا شيء والشهوات شيء آخر.

فالشهوات هي الغضب والزهو وحب الملذات والكراهية والشهوات الدنسة وما شابه ذلك. أما **الخطايا فهي تنفيذ هذه الشهوات عمليًا**، بمعنى أن الإنسان بجسده ينفذ الأعمال التي تثيرها فيه شهواته. فالإنسان يمكن أن تكون له شهوات ولكنه لا يخرجها إلى حيز التنفيذ.

٢

اهتمام العهد القديم بالخطايا والجديد بالشهوات

كانت الشريعة (في العهد القديم) تهدف إلى تعليمنا عدم صنع ما لا نريده لأنفسنا، وبالتالي حرمت علينا مجرد التنفيذ العملي للشر.

أما الآن (في العهد الجديد)، فإننا مطالبون بطرد الشهوة ذاتها، التي تدفعنا نحو الشر. فنطرد البغضة ذاتها ومحبة الملذات وحب الكرامة وغير ذلك من الشهوات.

٣

الكبرياء علة السقوط

اصغِ ماذا يقول الرب؟! "تعلموا منى لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" مت ١١:٢٩.

لقد كشف لنا أصل الشرور وعلتها، وكيفية معالجتها وما هو مصدر الصلاح. بمعنى "الاعتداد بالذات" الذي أسقطنا، وبالتالي لا ننال العفو إلا خلال نقيضه وهو "التواضع".

ما الذي جلب علينا هذه الأحزان جميعها؟ أليس الكبرياء؟! فقدُ خلق الإنسان لكي ينعم بكل متعه في جنة عدن، لكنهُ حرم من أن يصنع شيئًا واحدًا، فصنعه.

انظر يا له من كبرياء؟! يا له من عصيان (ابن الكبرياء)؟!

بآلام الخطية ندرك بركات الطاعة

قال الله بأن الإنسان لا يعرف كيف يتمتع بالفرح وحده، إنما لابد له أن يختبر الحزن ويبقى فيه إلى النهاية. فبدون تعلّمه ما هو الحزن وما هو التعب، لا يقدر أن يفهم ما هو الفرح وما هو السلام، وهكذا طرده الله من جنة عدن.

هنا أحاط بالإنسان حبه لذاته وأحاطت به إرادته الذاتية، وهذان يكسران عظامه ويعلمانه أنه يجب عليه ألا يتبع هواه بل يتبع وصايا الله، **وهكذا تصبح آلام العصيان معلمًا له عن بركات الطاعة**، كما يقول النبي: "يوبخك شرك وعصيانك يؤدبك" إر ٢:١٩.

والآن تدعونا الرحمة الإلهية قائلة: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" مت ١١:٢٨.

نطق (المسيح) بهذا، وكأنه يقول: لقد تعبتم وتألمتم بما فيه الكفاية. لقد تذوقتم نتائج العصيان الشرير. تعالوا الآن واستريحوا. لتعُد إليكم الحياة عن طريق التواضع بدلاً من الزهو الذي قادكم إلى الموت. "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم" مت ١١:٢٩.

٥

تقديم جزية وهدايا لله

أراد بعض المحبين لله – بعد ما قطعوا أعمال الشهوات – أن يبيدوا أيضًا من نفوسهم الشهوات، حتى لا يصيروا بعد شهوانيين. وذلك أمثال القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس وغيرهما من الآباء الطوباويين. لقد حملوا النية الصالحة لتطهير ذواتهم "من كل دنس الجسد والروح" ٢ كو ٧:١.

ولما كان من الصعب تحقيق هذا (بدرجة عظيمة) وهم سالكون في العالم، لذلك أخذوا شكلاً من الحياة ونظامًا معينًا للعمل، وهو حياة الانعزال والانفراد عن العالم. فبدأوا يهربون من العالم ويعيشون في البرية، ممارسين الصوم والسهر والنوم على الأرض، محتملين كل صنوف الحرمان الأخرى تاركين بالكلية كل من لهم وما لهم من مقتنيات.

٦

وهكذا فإن هؤلاء ليسوا فقط نفذوا الوصايا، بل وقدموا لله هدايا.

فالوصايا أُعطيت للمسيحيين عامة، وأُلزم كل مسيحي بطاعتها. هذه تشبه الجزية التي للملك[1] في العالم. ولكن إذ يوجد أناس أخصَّاء له عظماء يقدمون له لا الجزية فحسب بل وهدايا تليق بكرامتهم الخاصة ومركزهم. هكذا لا يقدم الآباء (الرهبان القديسون) لله الجزية فحسب بطاعتهم لوصاياه، بل يقدمون له هدايا، كالبتولية والفقر (الاختياري)... اللذين ليسا هما بوصيتين إجباريتين بل اختياريتان قيل عن الأولى: "من استطاع أن يقبل فليقبل" مت ١٩:١٢، وعن الثانية: "إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء" مت ١٩:٢١.

٧

صلب العالم لنا وصلبنا نحن للعالم

هؤلاء **صلبوا العالم لهم**، وجاهدوا **لكي يصلبوا أنفسهم للعالم**، مقتدين بالرسول القائل: "قد صُلب العالم لي وأنا للعالم" غلا ٦:١٤.

---

[1] هذا المثال يتناسب مع عصر الكاتب، حيث كان الملك له الجزية المطلقة للتصرف في الجزية والإتاوة، كملك شخصي له.

فالإنسان يصلب العالم له، عندما ينبذ العالم ويصير راهبًا، فيترك أبويه وممتلكاته وكل أمور العالم واهتماماته.

ويصلب الإنسان نفسه للعالم، ذلك بعد ما يتحرر من الأمور الخارجية يحارب ضد التمتع (الداخلي) واشتهاء الأشياء، أي عندما يصارع ضد رغباته ويميت شهواته ذاتها. عندئذٍ يقدر الإنسان أن يتجاسر ويقول مع الرسول: "قدُ صلب العالم لي وأنا للعالم" غلا ١٤:٦.

٨

آباؤنا، إذ صلبوا العالم لأنفسهم، بالجهاد صلبوا أيضًا أنفسهم للعالم. أما نحن فبالرغم مما يبدو علينا كما لو كنا قد صلبنا العالم لأنفسنا، بأن نبذنا العالم ودخلنا إلى الدير، إلا أننا لا نريد أن نصلب أنفسنا للعالم. فطالما نحب ملذاته، لا نزال مقتربين منه، وتُحرِّكنا أمجاده، محتفظين في داخلنا بالشوق إلى الأطعمة والملابس وغير ذلك من الأباطيل.

يلزمنا ألا نكون هكذا، فمادمنا قد تركنا العالم وكل ما فيه يجب علينا أيضًا أن نرفض الاقتراب إليه.

٩

الاقتراب من العالم والاتحاد معه

إننا نترك العالم، وهكذا ليتنا نترك الاقتراب إليه. لأن الاقتراب إليه يربطنا به مرة أخرى ويوحّدنا معه، ولو في أمور تافهة عادية ليست بذات قيمة.

فإن أردنا التحوّل عنه تمامًا والتحرر من الاقتراب إليه، يلزمنا أن نتعلم قطع رغباتنا، حتى بالنسبة للأمور القليلة الشأن. لأنه لا شيء ينفع البشر مثل تركهم رغباتهم. فبالحقيقة لا توجد فضيلة أخرى أنفع للإنسان من هذه.

يستطيع الإنسان أن يمارس قطعه لإرادته ورغباته الخاصة في كل لحظة. فلو أن إنسانًا كان يمشي وإذ بفكره يقول له: "تطلع إلى هذا وذاك"، يقدر أن يقطع رغبته هذه ولا ينفذها.

قد يقابل أناسًا يتكلمون، فيقول له فكره: "تحدث معهم بقليلٍ من الكلام"، لكنه يقطع رغبته ولا يتكلم.

قد يذهب إلى المطبخ، فيقول له فكره: " لنذهب ونرى ماذا يطبخون"، لكنه يقطع رغبته ولا يذهب الخ.

بقطع الإنسان رغباته بهذه الكيفية، تتكون لديه عادة قطع رغباته، وإذ يبدأ بالأمور الصغيرة ينتهي إلى قدرته على قطع رغباته قطعًا تامًا في الأمور الكبيرة بسهولة وهدوء.

وفي النهاية يبدأ ألا تكون له رغبة خاصة بالمرة، ويبقى غير مضطرب مهما حدث.

وهكذا إذ يقطع الناس رغباتهم ينالون عدم الاقتراب (من العالم)، وبعدم اقترابهم منه يرتفعون بعون الله إلى "اللاهوى".

١٠

التواضع أساس كل فضيلة

قال ناسك: "إننا محتاجون قبل كل شيء إلى التواضع".

لماذا قال هذا، ولم يقل إننا محتاجون قبل كل شيء إلى ضبط النفس، مع أن الرسول يقول: "كل من يجاهد يضبط نفسه في كل شيء" ١ كو ٩:٢٥؟!

أو لماذا لم يقل بأننا محتاجون قبل كل شيء إلى مخافة الله، إذ يقول الكتاب المقدس "مخافة الرب رأس المعرفة" أم ١:٧؟!

أو لماذا لم يقل إننا محتاجون قبل كل شيء إلى الرحمة أو الإيمان، حيث قيل: "بالرحمة والحق يُستر الإثم" أم ١٦:٦، و "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" عب ١١:٦؟!

لماذا ركز الناسك على التواضع وحده، تاركًا هذه جميعها إلى جنب رغم احتياجنا إليها؟!

إنه بهذا يظهر لنا أنه لا يمكن لمخافة الله أو الرحمة أو الإيمان أو ضبط النفس أو أية فضيلة أخرى أن تنمو بدون التواضع، هذا بجانب ما للتواضع من قدرة على إفساد كل سهام العدو.

فجميع القديسين سلكوا طريق التواضع وجاهدوا فيه: "انظر إلى ذلي وتعبي واغفر لي جميع خطاياي" مز ٢٥:١٨، وأيضًا: "تذللت فخلصتني" مز ١١٦:٦.

١١

التواضع وروح الغضب

قال الناسك ذاته: "التواضع هو ألا يغضب الإنسان ولا يُغضب أحدًا".

التواضع يجذب نعمة الله إلى النفس... وهذه تعتقها من هذين الألمين الخطيرين، لأنه أي شيء أخطر من أن تغضب من أخيك أو تُغضبه؟!

ولكن ماذا أقول: هل التواضع يحرر النفس من هذين الألمين فقط؟ لا بل ويحررها من كل ألم (شهوة) وكل تجربة.

١٢

عندما رأى القديس أنطونيوس شباك الشيطان منصوبة، تنهد وسأل الله قائلاً: "من يقدر أن يهرب منها؟" فأجابه الله: "المتواضع يهرب منها... بل ولا تقدر أن تقترب إليه".

أرأيت قوة هذه الفضيلة؟! حقًا إنه لا يوجد أعظم من التواضع، لأنه لا يوجد شيء يقدر أن يغلبه.

فإن حلّت بعض الأحزان بإنسان متواضع، للحال يلوم نفسه على أنه يستحقها، ولا يلوم غيره أو يوبخه. وهكذا فإنه يحتمل كل ما قد يحدق به بهدوء كامل، دون أن يضطرب أو يحزن. هكذا لا يغضب من أحد ولا يُغضب أحدًا.

١٣

نوعا التواضع

يوجد نوعان من التواضع، كما يوجد نوعان من الكبرياء.

النوع الأول من الكبرياء، هو أنه عندما يوبخه إنسان، يلومه ويشتمه كما لو كان هذا الأخ (الآخر) ليس بذي قيمة، حاسبًا نفسه أفضل منه.

إن لم يرجع مثل هذا الإنسان إلى رشده ويحاول إصلاح طريقه، يسقط شيئًا فشيئًا في النوع الثاني من الكبرياء، حيث ينتفخ الإنسان بذاته أمام وجه الله ويعدد محاسنه وفضائله كما لو كان قد صنعها بقدرته وذكائه ومعرفته وليس بمعونة الله له.

النوع الأول من التواضع هو أن ينظر الإنسان إلى أخيه على أنه أحكم وأسمى منه في كل شيء، فيرى في نفسه أنه اقل من الجميع.

وأما النوع الثاني من التواضع فهو أن يعدد الإنسان أمام الله محاسن الآخرين، وهذا هو كمال التواضع الذي للقديسين.

١٥

التواضع شعور بالضعف

لا يستطيع أحد أن يصف التواضع ما هو، وكيف يولد في النفس. إنه يعلم هذا بالاختبار، أما الكلام فيعجز عن أن يعرفه.

في أحد الأيام كان الأب زوسيما يتكلم عن التواضع، وكان أحد السوفسطائيين حاضرًا فسأله: كيف تنظر إلى نفسك أنك خاطئ، وأنت تعرف أن لك فضائل... وأنك تطيع الوصايا؟!" فلم يجد الناسك بما يجيب به عليه، بل ببساطة قال: "لا أعرف ماذا أقول لك، إنما أعرف إنني خاطئ".

ولما عاد السوفسطائي يضايقه متسائلاً: "كيف هذا؟" عاد الناسك يكرر الإجابة عينها: "**أنا لا أعرف كيف هذا، وإنما أعرف بحق إني خاطئ، فلا تبلبلني**".

وأيضًا عندما قارب الأب أغاثون إلى الموت سأله الإخوة: "أما تخاف يا أبانا؟" أجابهم: "إنني حاولت قدر المستطاع حفظ الوصايا، ولكنني إنسان؛ كيف لي أن أعرف إن كان ما قد صنعته يرضي الله. لأن حكم الله شيء وحكم الإنسان شيء آخر".

١٦

كيف نقتني التواضع

تحدث الناسك دفعة عما يجلب التواضع للإنسان فقال: إن الطرق المؤدية إلى التواضع هي:

١. **أن يعمل الإنسان عملاً جسديًا بحكمة.**

٢. **ناظرًا إلى نفسه أنه أقل من الجميع.**

٣. **دون أن يكف قط عن الصلاة لله.**

فالأعمال الجسدية (الروحية) تجلب للنفس التواضع، لأن النفس تشارك الجسد وتتألم معه في كل ما يحدث له. فكما أن الأعمال الجسدية تجعل الجسد متواضعًا، هكذا تجعل النفس أيضًا متواضعة.

أما أن ينظر الإنسان إلى نفسه **كأقل من الجميع**، فهذا من الملامح المميزة للتواضع. فإن تدرب الإنسان على ذلك حتى يعتاد عليه، فإن هذا كفيل بأن يزرع فيه التواضع ويقتلع منه ما دعوناه بـ "النوع الأول من الكبرياء". لأنه كيف يقدر إنسان أن يتكبر على غيره أو يلومه أو يقلل من شأنه إن كان ينظر إلى نفسه كأقل الجميع؟!

بنفس الطريقة، من يمارس **الصلاة الدائمة**، يميل بنفسه نحو التواضع. فإذ يعرف عجزه عن الحصول على الفضيلة بدون معونة الله لا يكف عن الصلاة، طالبًا من الله أن يظهر له رحمة. هكذا عندما ينال الإنسان الذي يصلى بغير انقطاع شيئًا يعرف كيف ناله، فلا يتكبر بنواله هذا الشيء، إذ لا يقدر أن ينسبه إلى قوته، بل ينسب كل صلاحه إلى الله، مقدمًا له الشكر الدائم، سائلاً إياه على الدوام، خائفًا لئلا يُحرم من العون (الإلهي). **هكذا يصلي بتواضع وينال بصلاته التواضع. وبقدر ما يتقدم في الفضيلة ينمو في تواضعه، وبقدر ما ينمو في تواضعه ينال عونًا أكثر وبالتالي يتقدم أكثر في التواضع.**

١٧

الناموس الطبيعي والناموس المكتوب

... وضع الله في الإنسان شيئًا إلهيًا، فكرًا معينًا يشبه الشرارة، لها نور وحرارة (دفيء). هذا الفكر ينير الذهن ويوضح له ما هو صالح وما هو شرير. وهذا هو ما يُسمى بـ "**الضمير**" وهو **ناموس طبيعي**.

فقبل أن يُوجد الناموس المكتوب أرضى البطاركة (الآباء الأولون) وكل القديسين الله بخضوعهم لهذا الناموس.

لكن بالسقوط غطت البشرية الضمير ودفنته، وصارت هناك حاجة إلى الناموس المكتوب بواسطة الأنبياء، يعلن عن مجيء ربنا يسوع المسيح نفسه، حتى يكشف الضمير ويقيمه، ويعيد إشعال هذه الشرارة المدفونة، ويحفظ وصايا المسيح المقدسة.

١٨

إفساد الناموس الطبيعي

هكذا الآن لنا سلطان أن ندفن الضمير أو نجعله يتلألأ فينا ويضيء وذلك إن أطعناه. فإن حدثتنا ضمائرنا بصنع أمر ما ونحن أهملنا تنفيذه، ثم عادت وأكَّدت علينا صنعه ومع ذلك نستمر في الوطء عليه بأقدامنا... فإننا بهذا ندفنه. عندئذٍ لا يعود الضمير يقدر أن يحدثنا بوضوح بسبب الثقل الذي وضعناه عليه، فيكون **أشبه بمصباح مضيء يتراكم عليه رماد (أوساخ) فيصير ضوءه بالنسبة لنا معتمًا شيئًا فشيئًا.**

وكما أنه لا يقدر إنسان أن يرى وجهه في ماء معكر بالطين، هكذا نحن بالعصيان لا نعود ندرك صوت الضمير (تمامًا)، حتى يبدو كما لو أنه غير موجود فينا.

١٩

دُعي الضمير "خصمًا"، لأنه دائمًا يقاوم رغباتنا الشريرة. إنه ينبهنا إلى ما يجب علينا أن نفعله، لكنه لا يعمل (لا يجبرنا على العمل).

إنه يديننا إن كنا لا ننفذ ما يجب علينا أن نفعله. لهذا السبب دعاه الرب (خصمًا) وأوصانا: "كن مراضيًا لخصمك، سريعًا مادمت معه في الطريق" مت ٢٥:٥، أي مادمت في العالم كما يقول باسيليوس الكبير.

٢٠

حفظ الناموس الطبيعي (الضمير)

ليتنا نحافظ على ضميرنا، مادمنا في هذا العالم. ليتنا نتبعه ولا نهمله في أي شيء مهما كان صغيرًا حتى لا يتهمنا. لأنه يلزمنا أن نتحقق من أن الإهمال في الأمر التافهه والصغير يدفع بنا إلى الإهمال في الأمور الكبيرة.

فإن بدأ الإنسان (يستهتر) قائلاً: "ماذا يحدث إن أكلت هذه الكسرة؟! وماذا يحدث لو نظرت إلى هذا أو ذاك؟!" بقولنا:"ماذا يعني هذا وماذا يعني ذاك" نسقط في عادات شريرة، ونبدأ نهمل في أمور هامة عظيمة، ونطأ ضمائرنا بأقدامنا. هكذا نتقسى في صنع الشر...

٢١

حفظ الضمير نحو الله والقريب والخليقة غير العاقلة

يلزمنا أن نحفظ ضميرنا من جهة الله، ومن جهة القريب، ومن جهة الأشياء.

فبالنسبة لله، يُوجّه الإنسان إليه ضميره عندما لا يهمل وصاياه حتى بالنسبة لتلك التي لا يراها البشر، ولا يطالبنا بها أحد. هذه نوجه فيها ضمائرنا نحو الله خفية.

أما عن توجيه الضمير نحو القريب، فذلك يتطلب منا ألا نرتكب شيئًا – كلمة أو نظرة أو تعبيرًا (على ملامح الوجه) – نعرف أنه يسيء إلى القريب أو يضايقه.

أما عن توجيه الضمير نحو الأشياء فيعني عدم إساءة استخدامها أو إفسادها أو إلقائها في غير موضعها.

في كل هذا يلزمنا أن نحفظ ضميرنا نقيًا بلا لوم، حتى لا يسقط الإنسان في ذلك الضيق الذي حذَّرنا منه الرب (مت ٢٦:٥).

٢٢

نوعا الخوف

يقول يوحنا: "المحبة الكاملة تطرد الخوف إلى خارج" (١ يو ٤:٨)، فلماذا يقول النبي الطوباوي داود: "اتقوا (خافوا) الرب يا قديسيه" (مز ٩٣: ٤)؟

هذا يكشف عن نوعين من الخوف:

النوع الأول أولي، والنوع الثاني خوف كامل.

الأول يخص المبتدئين، والثاني يخص القديسين الكاملين الذين بلغوا إلى قامة الحب الكامل.

فمن يطيع إرادة الله بسبب خوفه من العذاب يكون خوفه مبتدئًا. وأما الذي ينفذ إرادة الله بسبب حبه لله لكي يرضيه، وقد بلغ بهذا الحب إلى الخوف الكامل. **وبواسطة هذا الخوف (الكامل) يخاف لئلا يفقد تلك البهجة التي يتمتع بها بوجوده مع الله ويخشى لئلا يخسرها. هذا هو الخوف الكامل، المولود من الحب، الذي يطرد الخوف البدائي إلى الخارج.**

٢٣

لنبدأ بالخوف البدائي

لا يقدر أحد أن يبلغ إلى الخوف الكامل ما لم يحصل أولاً على الخوف البدائي. إذ يقول الحكيم ابن سيراخ: "رأس الحكمة مخافة الله.. كمال الحكمة مخافة الله" ابن سيراخ ١:١٦،٢٠، قاصدًا بكلمة "رأس" الخوف البدائي الذي يتبعه الخوف الكامل الذي للقديسين.

يتوقف الخوف البدائي على حال روحنا، وهو يحفظ النفس من كل سقطة، إذ قيل إنه بمخافة الرب يتخلص كل أحد من الشر. ولكن الإنسان الذي يتخلص من الشر بسبب خوفه من العقاب يشبه عبدًا يخاف من سيده، وبالتدريج يبتدئ يصنع صلاحًا طوعًا.

في البداية يعمل كأجير ينتظر الأجرة عن عمله الصالح. فإن استمر هكذا متجنبًا الشر بسبب الخوف كعبد صانعًا الخير على رجاء نوال المكافأة كأجير، عندئذٍ يقيم في صنع الخير ويصير له تذوق خاص بالخير الروحي، فلا يعود يريد الانفصال عنه. عندئذٍ يصل إلى عمل الابن، فيحب الخير لأجل الخير ذاته، ورغم أنه يخاف، لكنه يعمل لأنه يحب. هذا هو الخوف العظيم الكامل.

٢٤

الجهاد في الجانب الإيجابي

عبَّر النبي داود عن هذا التسلسل في قوله التالي: "حِد عن الشر واصنع الخير، اطلب السلامة واسعَ وراءها" مز ٣٤:١٤.

"حد عن الشر"، أي تجنب الشر كله عامة. اهرب من كل عمل يدفع بك نحو الخطية.

لكن النبي لم يقف عند هذا الحد، بل أضاف قائلاً: "واصنع الخير". لأنه أحيانًا لا يصنع إنسان شرًا لكنه لا يصنع خيرًا. مثال ذلك لا يؤذى أحدًا وفي نفس الوقت لا يظهر أية رحمة. فهو لا يكره لكنه لا يحب.

وإذ قال داود هذا أضاف: "اطلب السلامة واسعَ وراءها". لم يقل "اطلب" بل "اسع وراءها"، أي مجاهدًا لنوالها.

فكر في هذه الكلمات بتدقيق ولاحظ الدقة التي أظهرها القديس. فعندما يُوهب للإنسان أن يَحِد عن الشر، وبعون الله يجاهد لكي يصنع الخير فانه يمكن أن يكون فريسة، موضوع هجوم العدو. لذلك عليه أن يتعب ويجاهد ويحزن، مرة كعبد بدافع الخوف حتى لا يرتد إلى الشر مرة أخرى، ومرة كأجير طالبًا المكافأة عن صنع الخير.

وإذ يعاني من هجمات العدو (الشيطان) يصارع معه ويقاومه بهذه الدوافع (الخوف أو طلب الأجرة)، عندئذٍ يصنع الخير ولكن بجهد عظيم وحزن.

لكن عندما يتقبل معونة الله، ويحصل على عادة معينة في صنع الخير، يجد راحة (في صنع الخير) ويتذوق السلامة. عندئذٍ يختبر ماذا تعني تلك المعركة المحزنة، وما هو معنى فرح السلامة وسعادتها. عندئذٍ يبدأ "يطلب السلامة" ويجاهد مثابرًا في داخله.

من يصل إلى هذا الحال يتذوق السعادة (الطوباوية) التي لصانعي السلام (مت ٥:٩)، وعندئذٍ من يقدر أن يلزمه بصنع الخير إلا بقصد التمتع بالخير في ذاته؟! مثل هذا الإنسان يعرف أيضًا "الخوف الكامل".

٢٥

كيف نقتني مخافة الرب؟

قال الآباء إن الإنسان ينال مخافة الله وذلك:

١. إن تذكر الموت والعذابات،

٢. وسأل نفسه كل مساء كيف قضى يومه، وكل صباح كيف قضى الليل.

٣. ولا يكون وقحًا (مهزارًا).

٤. وأخيرًا إن بقى في علاقة (صداقة) مع إنسان يخاف الله. فإنه يروى عن أخ سأل ناسكًا: "ماذا أصنع أيها الأب لكي أخاف الله؟" فأجابه الناسك: "**اذهب واسكن مع إنسان يخاف الله، فبسلوكه كخائف لله تتعلم مخافة الله**".

ونحن نطرد خوف الله عن أنفسنا بصنعنا ما هو نقيض للأمور السابقة. فلا نذكر الموت ولا العذابات، ولا ندقق مع أنفسنا ونحاسبها كيف نقضى زماننا بل نعيش مستهترين، ونصادق أناسًا ليس فيهم خوف الله، كذلك نسلك بوقاحة.

وهذه الأخيرة "الوقاحة" (أو الهزل السخيف) هي أشر الكل، إذ تدمرنا إلى التمام. فليس شيء ينزع خوف الله عن النفس أكثر من الوقاحة.

قال الأب أغاثون عندما سُئل عنها: "إنها تشبه ريحًا عاصفًا شديدًا، فإذ تبدأ تهب يهرب الكل، وتقتل كل ثمار الأشجار".

ليت الله ينقذنا من هذا الألم المهلك بالتمام...

٢٦

أساليب الهزل

يمكن أن تأخذ الوقاحة أشكالاً كثيرة، فقد يكون الإنسان وقحًا بكلمة أو حركة (إشارة) أو نظرة.

وهي قد تقود الإنسان إلى الثرثرة، وإلى الأحاديث الدنيوية، أو إلى صنع أمورٍ هزلية، أو توبيخ الآخرين بقصد إيجاد جو من المرح غير اللائق.

كذلك من قبيل الوقاحة أن يلمس غيره بغير ضرورة، ويشير إلى إنسان بضحك، ويدفعه (يزقه)، ويخطف من يديه ما لديه، ويتفرس فيه بطريقة معيبة. هذا كله من عمل الوقاحة، وهيُ تفقد النفس مخافة الله، وشيئًا فشيئًا تجعلها مستهترة تمامًا. لذلك عندما أعطى الرب الشريعة قال: "فتعزلان بنى إسرائيل عن نجاساتهم" لا ١٥:٣١. لأنه لا يقدر الإنسان أن يكرم الله بدون الوقار والتواضع. وبالتالي لا يقدر أن ينفذ حتى وصية واحدة.

ليس شيء أضر من الوقاحة (الهزل السخيف)، فإنها أم جميع الشهوات، تطرد الوقار، وتنزع خوف الله من النفس، وتولد اللامبالاة.

٢٨

احفظ نفسك بلا اضطراب

في كل شيء تصنعه مهما كان عاجلاً جدًا أو ذات أهمية عظيمة، أرجو ألا تتعجل ولا تثور، لأن الهدوء مطلوب. **فإن أي شيء تصنعه سواء أكان أمرًا عظيمًا أو صغيرًا ليس ألا جزء من ثمانية (٨/١) من**

المشكلة، أما السبعة أجزاء من ثمانية فهو أن يحفظ الإنسان نفسه بغير اضطراب حتى ولو فشل في إنجاز العمل.

لذلك إن كنت مشغولاً بعملٍ ما وأردت أن تصنعه بكمال، حاول أن تنفذه، وهذا – كما قلت لك – ثُمن المشكلة. ولكن احرص في نفس الوقت على أن تحفظ نفسك بغير ضرر، وهذا هو السبعة أثمان.

على أي الأحوال إن كان تنفيذ العمل يحتم عليك الإضرار بنفسك بغضبك وذلك بتعجلك، فكان خير لك ألا تفقد السبعة أجزاء من أجل حفظ الثمن (أي خير لك ألا تعمل العمل عن أن تفعله بتعجل).

٢٩

المشورة في كل شيء

يقول الحكيم سليمان.. بأن من ليس له إرشاد يسقط كالورق، وفي كثرة المشورة يوجد سلام.

إنه لم يقل في مشورة الكثيرين يوجد سلام، إذ لا يطلب منا أن نستشير كل أحد، بل أن نطلب المشورة في كل شيء. وكأمر طبيعي نستشير إنسانًا نثق فيه. بمعنى ألا نخبر عن شيء ونخفي آخر، بل نكشف كل أمر ونطلب المشورة في كل شيء. سلام مثل هذا الإنسان أكيد بسبب كثرة المشورة.

٣١

كشف الأفكار

عندما لا نكشف أفكارنا ونياتنا، ولا نطلب مشورة المختبرين، نعتمد على إرادتنا الخاصة ونتبع تبريراتنا الذاتية.

واضح أننا إذ نصنع بعض الأمور الصالحة ننصب لأنفسنا شباكًا، وبدون أن نعرفها نهلك. فإنه كيف يمكننا أن نفهم إرادة الله أو نُخضع أنفسنا لإرادة الله بالكامل، إن كنا نعتمد على ذواتنا ونتمسك بإرادتنا الذاتية؟ لذلك قال الأب بيمين: "إرادتنا هي حائط نحاسي تفصل بين الإنسان والله".

٣٢

خطورة الاتكال على الإرادة الذاتية

الإنسان الذي يعتمد على تفكيره الذاتي ويحتفظ بإرادته الخاصة، يُسقطه الشيطان كيفما أراد. أما الذي يصنع كل شيء بمشورة فلا يقترب إليه.

هذا هو السبب الذي لأجله يكره الشيطان الأسئلة والإرشاد. إنه يبغض مجرد الصوت ونفس رنين الكلمات.

أليس واضح سبب هذا؟ لأنه يعلم أن حيله الشريرة تتفضح للحال عندما يبدأ الإنسان يستفسر ويتكلم في أمور نافعة.

ولا يوجد شيء يرعب الشيطان مثل أن تتفضح ألاعيبه، إذ لا يعود قادرًا أن يحتال كيفما يريد.

عندما يستفسر الإنسان ويسمع النصيحة من مختبر يقول له "افعل هذا ولا تفعل ذاك" أو "الآن هو وقت لصنع كذا"،عندئذٍ لا يقدر الشيطان أن يضره أو يطرحه، مادام يطلب المشورة ويحمي نفسه من كل جانب. بهذا يتحقق القول أنه في كثرة المشورة يوجد سلام.

٣٣

يحب العدو (الشيطان) أولئك الذين يعتمدون على فهمهم الخاص، ويساعدهم واضعًا حيلاً ضدهم. **وإنني لا أعرف طريقًا آخر لسقوط الراهب إلا اعتماده على قلبه الخاص.** فالبعض يقولون بأن الإنسان يسقط بسبب هذا أو ذاك، أما أنا فإنني لا أعرف طريقًا للسقوط غير اتباع الإنسان لقيادة ذاته. فإن رأيت إنسانًا يسقط، فاعلم أنه يسلك بسبب قيادة ذاته، إذ لا شيء أكثر منه خطرًا ووبالاً.

٣٤

احذر الصغائر

إنني أكرر لكم دائمًا أننا نرتكب الخطايا الخطيرة عن طريق تساهلنا مع أنفسنا في الأمور الصغيرة.

(فمثلاً) أي شيء أكثر خطرًا من خطية إدانة الآخرين؟! أي شيء سواها مكروه لدى الله وغريب عنه؟ ومع ذلك فإن الإنسان يصل إلى هذا الشر العظيم عن طريق أمور تبدو غير هامة، كأن يسمح لنفسه بقليل من الانتقاد لقريبه. فإذ يسمح لنفسه بهذا يبدأ الذهن لا يهتم بخطاياه بل بخطايا قريبه. وهذا يقوده إلى التعلل (بسيرة الناس)، والتوبيخ، والنطق بكلمات شريرة وأخيرًا بالإدانة المهلكة.

لذلك فإنه لا شيء يغضب الله ويفقد الإنسان (النعمة) ويقوده إلى الهلاك الأكيد مثل البحث عن أخطاء الآخرين، والنطق بشرٍ ضدهم وإدانتهم.

٣٥

الإدانة

النطق بشرٍ شيء، والإدانة أو التقليل من شأن الغير شيء آخر.

أن "تنطق بشرٍ" يعني أن تقول عن إنسان أنه قد كذب أو زنى أو كان غضوبًا أو صنع خطأ آخر. وهكذا فإن نطق الإنسان بشر ضد أخيه يعني أن يتكلم عن عصيانه بانفعال.

أما الإدانة فتعني أن تقول إن "فلان" كذاب وزانٍ وسيئ الأخلاق. مثل هذا الإنسان يدين حالة نفس الغير ذاتها، **مصدرًا حكمًا على حياته كلها**، بقوله أنه كذا وكذا. ويصدر عليه هذا الحكم... وهذه خطية خطيرة.

٣٦

عندما كان الفريسي يصلي ويشكر الله من أجل فضائله لم يكن يكذب، بل نطق الحق، ولم يُدن من أجل هذا. لأنه يجب علينا أن نشكر الله عندما يعطينا أن نصنع خيرًا، طالما أن الله قد أعاننا على صنعها.

إنه لم يُدن لأجل هذا... بل عندما التفت نحو العشار وقال: "إني لست... مثل هذا العشار" (لو ١١:١٨). لقد ارتكب الإدانة، إذ أدان هذا الإنسان هكذا، مصدرًا حكمًا على حال نفسه، وعلى حياته بأكملها.

لهذا السبب تبرر العشار دون الآخر (لو ١٤:١٨).

٣٧

الله وحده له الحق في أن يبرر أو يدين، لأنه هو وحده يعرف حالة نفس كل أحدٍ، وقوته وميوله ومواهبه وتكوينه البيولوجي وطاقاته. وبناء على هذه جميعها يدين الله الإنسان أو يبرره. لأنه من يقدر أن يعرف هذا كله على حقيقته غير الله الذي خلق الكل ويعرف الكل.

٣٨

لا تستخف بالغير

أحيانًا لا ندين الآخرين فحسب بل ونستخف بهم. فإن الإدانة شيء والاستخفاف بالآخرين شيء آخر. **الاستخفاف بالغير يعني أن الإنسان ليس فقط يدين الآخر بل ويحتقره ويزدري به ويبعد عنه كما لو كان نجسًا وهذا أشر من الإدانة وأكثر ضررًا.**

٣٩

الذين يريدون أن يخلصوا يلزمهم ألا يفكروا في سقطات الآخرين بل دائمًا يتطلعون إلى نفوسهم وهكذا ينمون.

مثل هذا الإنسان، إذ يرى أخاه يخطئ، يتأوه ويقول: "**ويحي! إنه يخطىء اليوم، أما أنا فأخطئ غدًا!!**"

هل تنظر حكمة روحه، كيف وجد للحال وسائل تجنبه إدانة أخيه؟! لأنه بقوله: "أما أنا فأخطئ غدًا" تتأهب نفسه للخوف لئلا هو أيضًا يخطئ فيتفطن لهذا، وبهذا يهرب من إدانة أخيه.

علاوة على هذا، فإنه لا يكتفي بالقول السابق بل ينحني عند قدمي أخيه، قائلاً: "هذا سيتوب عن خطاياه، أما أنا فقد لا أتوب كما يجب. إنني قد لا أنال توبة ولا أحصل على قوتها".

أترى مدى استنارة هذه النفس الإلهية؟!

٤٠

حث الغير على الإدانة

يحدث أحيانًا أن يفيض سم الإدانة من نفوسنا ليصب في الآخرين. فإذ نلتقي بآخر له سلام مع الجميع نسرع في أخباره بأن هذا حدث وذاك تم، ونضره بهذه الأقوال، باثين في قلبه إدانة الغير... فنقوم بعمل الشيطان ولا نبالي. لأنه من هو هذا الذي ينصب عمله في ضرر الآخرين وجعلهم مرتبكين إلا الشيطان؟!

وبهذا نحن نؤكد **إننا مساعدون للشيطان في هلاك نفوسنا ودمار اخوتنا.**

ولماذا يحدث هذا؟ لأنه ليس فينا حب. "لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا" ١ بط ٤:٨.

٤٢

الاقتراب إلى الله وإلى الإخوة بالحب

تصور دائرة تخرج من مركزها أشعة أو خطوط. فإنه بقدر ما تبتعد الخطوط عن المركز بقدر ما تفترق عن بعضها البعض... وبالعكس كلما اقتربت من المركز تقاربت نحو بعضها البعض.

افترض أن هذه الدائرة هي العالم، ومركز الدائرة هو الله. والخطوط من المركز إلى المحيط أو من المحيط إلى المركز هي طرق حياة البشر. فإننا نجد نفس الأمر، فبقدر ما يتحرك القديسون في داخل الدائرة تجاه المركز، راغبين في الاقتراب من الله، يقترب كل منهما نحو الآخر.

بقدر ما يقترب البشر نحو الله، يقترب كل منهم نحو بعضهم البعض. وبقدر ما يقتربون نحو بعضهم البعض يقتربون نحو الله...

وعندما يبتعدون عن الله ويتجهون نحو الأمور الخارجية،... يبتعد كل منهم عن الآخر، وبالتالي يبتعدون عن الله (أكثر)...

هكذا أيضًا في اقتنائنا للحب، بقدر ما نكون خارجًا ولا نحب الله، يبتعد كل منا عن أخيه. ولكننا إن أحببنا الله، فإنه بقدر ما نقترب إليه نتحد بالحب بإخوتنا، وبقدر ما نتحد بالحب بإخوتنا هكذا نتحد بالله.

٤٣

كيف نحتمل الآخرين

لماذا يحدث في بعض الأحيان أن يسمع شخص شتائم ولا يهتم بها، بل يحتملها بدون اضطراب كما لو أنه لم يسمعها، بينما في أوقات أخرى يضطرب في الحال عند سماعها؟.

لا يضطرب الناس بعد الصلاة أو بعد القيام ببعض التداريب الصالحة، إذ يكون الإنسان في حالة داخلية حسنة، فيتساهل مع أخيه ولا يضطرب بسبب أعماله.

قد يحدث أيضًا أن يشعر الإنسان بحنو نحو أخيه، فيحتمل كل ما يأتي منه بدون ضيق.

وأيضًا قد يحدث أن الإنسان يستخف بذاك الذي يريد أن يسئ إليه، وهكذا لا يهتم بالأمور التافهة الصادرة عنه.

ويضطرب الناس من الأسباب العكسية، إما لأنهم ليسوا في حالة داخلية صالحة، أو لأنهم يكرهون الذي يسيء إليهم، أو لأسباب أخرى. **ولكن السبب الرئيسي لاضطرابنا هو أننا لا نلوم أنفسنا**[1].

٤٤

قال أنبا بيمين: "حيثما يذهب الإنسان الذي يلوم نفسه، فانه في أي ضرر يصيبه أو إهانة أو أي ضيقة تحل به يعتبر نفسه مُقدَّمًا انه يستحق كل شيء غير سارٍ. ولهذا فإنه لا يضطرب أبدًا. فهل توجد حالة أكثر من هذه تحررًا من الحزن؟!.."

٤٥

[1] استُخدمت أغلب عبارات نيافة أبينا الأنبا شنودة أسقف التعليم الكنسي (حاليًا البابا شنودة الثالث) في ترجمة لهذه الفقرة وبعض الفقرات التالية (حتى فقرة ٥٧) عن كتابه "من أقوال الآباء في اللاهوت الروحي – الغضب والاحتمال".

بخوف الله نلوم أنفسنا

قد يقول القائل: إن أساء إليَّ أخ، وفحصت ذاتي فوجدت إنني لم أكن أنا السبب، فكيف يمكنني أن ألوم نفسي؟!"

في الواقع إذا اختبر إنسان خوف الله، يجد أنه هو السبب، إما بكلمة أو بفعل أو نظرة.

على أي الحالات، إن ثبت أنه– في هذه المرة – لم يكن سبب، فلابد أنه قد أساء إليه في وقت آخر بطريقة ما، أو ربما يكون قد أساء إلى أخ آخر وعليه أن يحتمل من أجل ذلك، أو كما تكون الحال غالبًا، أنه من أجل خطية أخرى.

لذلك فإنني أقول إنه إن فحص إنسان نفسه بخوف الله، وفي حزم يسأل ضميره، فإنه لا يمكن أن يفشل في أن يجد نفسه مذنبًا، وهكذا يلوم نفسه.

٤٦

لا نلم الآخرين

قد يحدث أن يكون إنسان في وحدة وسكون يعيش في سلام، ويأتيه أخ آخر وفي حديثه معه يقول شيئًا مُكدِّرًا، فيضطرب المتوحد في الحال؛ ويقول بعد ذلك، لو لم يكن قد جاء هذا (الأخ) ليقلقني ما كنت قد أخطأت". يا له من تبرير سخيف!! هل الذي تكلم معه هو الذي قدم إليه الألم (الغضب) أم أن ما صنعه هو إذ أخرج إلى السطح ذاك الألم الذي هو موجود فيه من قبل؟! لذلك كان يجب عليه أن يتوب عن ألمه ويلوم نفسه بدلاً من أن يحمل مرارة ضد أخيه.

إن مثل هذا الإنسان يشبه خبزة عفنة، تبدو من الخارج سليمة، ولكن من الداخل بها عفونة. لذلك فإن كسرها أي شخص يكتشف عفونتها.

أو يشبه أناءً نظيفًا (من الخارج) مملوء في الداخل قذارة ونتنًا، فمن يفتحه يتحقق في الحال من نتنه. بنفس الطريقة، كان هذا الشخص يعيش – كما كان يبدو له – في سلام، غير عالمٍ بالألم الموجود في داخله. فإن كان يريد أن ينال رحمة، يجب عليه أن يتوب لائمًا نفسه. وبهذا فقط يحصل على النقاوة ويتقدم. أما بالنسبة للأخ فيجب عليه أن يشكره بحق، إذ كان نافعًا له.

٤٧

كل خطية نرتكبها تضعف قوتنا

كلما بقيت النفس تخطئ زمانًا طويلاً، ضعفت. لأن الخطية تضعف الإنسان وتضنى من ينغمس فيها. وهكذا كل ما يسقط عليه (من خطايا) يثقل عليه.

ولكن إن تقدم الإنسان في صنع الخير، فإنه بمقدار ما يتقدم في ذلك تخف الأحمال التي كانت قبلاً ثقيلة عليه (أي يسهل عليه التغلب على الخطية).

٤٨

في كل مناسبة يجب علينا أن نتطلع إلى فوق، سواء قدم البعض لنا خيرًا أو تحملنا ضررًا من أحد. إذ يجب علينا أن ننظر إلى فوق ونشكر الله على كل ما يحدث لنا، لائمين أنفسنا دائمًا، بأن ما يحدث لنا من شر إنما هو نتيجة لخطايانا الخاصة.

٥١

من يهزم الغضب يهزم الشيطان

قال آباؤنا أنه ليس من شيمة الرهبان أن يغضبوا أو يسيئوا إلى أحد. وأيضًا قالوا **إن من يهزم الانفعال (ثورة الغضب) يهزم الشياطين، وأما الذي يهزمه هذا الألم فإنه غريب بالكلية عن الرهبنة...**

إذًا بماذا ندافع عن أنفسنا عندما لا نستسلم للثورة والغضب فحسب، بل ونستمر حانقين؟!

ماذا نقدر أن نفعل إلا أن نبكي من أجل دناءتنا هذه وقسوة قلوبنا؟!

على أي الأحوال ليتنا نهتم بأنفسنا يا إخوتي بمعونة الله لكي نتحرر من مرارة هذا الألم الضار.

٥٢

راجع نفسك عند الغضب

كثيرًا ما تنشأ متاعب ومضايقات بين الإخوة، لكن – كقاعدة – يسرعون إلى تسوية هذه الخلافات ويهدأون. ولكن قد يحدث في بعض الأحيان أن يستمر الإنسان في تغذية شعوره (الداخلي) بالبغضة نحو أخيه، ويلتصق بأفكار إساءة ضد أخيه. هذا حقد، لذلك فإن مثل هذا الإنسان محتاج إلى حرص عظيم حتى لا يقسو (على أخيه ويهلك).

فالإنسان الذي يقيم سلامًا مع آخر للحال بعدما يكون قد ثار ضده، يعالج غضبه لكنه لا يعالج حقده، لذلك فإنه يبقى مستاء من أخيه. لأن **الغضب شيء، والحقد شيء آخر، والتهيج (الثورة) شيء ثالث، والاضطراب شيء آخر.**

ولكي تفهم الأمر بوضوح أكثر، أعطيك مثالاً: لكي يشعل الإنسان نارًا يأخذ قطعة من الفحم، وهذه هي الكلمة التي أساء بها أخوك إليك، إن احتملتها تكون قد أطفأت الفحم. ولكن إن فكرت: "لماذا يقول لي هذا ذلك القول؟ إنني أيضًا أرد عليه قائلاً كذا وكذا. إنه لو لم يقصد الإساءة إليَّ ما كان قد قال لي هذا. لذلك يجب عليّ أن أرد الإساءة بالمثل". بهذا التفكير تضع بعض الوقود أو ما أشبهه لتبدأ النار. وبذلك ينتج دخانًا الذي هو الاضطراب. والاضطراب هو حركة في الأفكار وتقلب لها، تثير القلب وتهيجه.

أما التهيج فهو عمل انتقامي ضد من أساء إليك. وهذا يبعث نحو الجسارة. وقد قال القديس مرقس: "**سوء النية إذ تغذيها الأفكار تهيج القلب ولكن الصلاة تقتلها**".

مع أنك لو احتملت تلك الكلمات الصغيرة التي نطق بها أخوك، لأطفأت قطعة الفحم الصغيرة قبل أن تنتج اضطرابًا. ومع هذا فإنك **إن أردت تقدر أن تطفئ حتى الاضطراب في بدايته بالصمت والصلاة بل وبمجرد انحناءة من القلب.**

أما إذا داومت في التدخين، أي تهيج القلب وإثارته بالأفكار القائلة: "لماذا فعل بي كذا... وأنا أيضًا أردّ له المثل، فإنه بهذا يشتعل القلب ويتولد التهاب التهيج. **وإن أردت أيضًا تقدر أن تطفئ حتى التهيج قبل أن يبلغ إلى الغضب.**

لكن إن داومت على إثارة نفسك وتهيجها، فإنك تكون كمن يضيف إلى النار وقودًا. وهكذا تنتج لهيبًا، الذي هو الغضب.

والغضب إذا استمر يتحول إلى حقد، الذي لا يقدر أن يتحرر منه الإنسان إلا ببذل دمه (أي عرقه وجهده وتعب نفسه).

٥٣

اقتلع الخطية في بدء انطلاقها

الآن وقد سمعت عن معنى الاضطراب والتهيج والغضب والحقد. فهل رأيت كيف يصل البشر إلى هذا الشر بواسطة كلمة واحدة؟! فلو أنك لُمت نفسك من الابتداء، واحتملت بصبر كلمة أخيك، ولم ترغب في أن تنتقم لنفسك منه بالرد على تلك الكلمة بكلمتين أو خمسة، وهكذا ترد الشر بالشر (فإنه لو حدث هذا) لكنت قد تحررت من هذه الشرور جميعها.

لذلك أقول لك: **اقطع الآلام دائمًا وهي ما تزال صغيرة، قبل أن تتأصل فيك وتقوى وتبدأ في إضعافك، لأنك عندئذٍ تقاسي منها الكثير. فإن يوجد فارق بين جني ورقة عشب صغيرة واقتلاع شجرة ضخمة من جذرها!!**

٥٤

قد يظن إنسان أنه لا يرد الشر بالشر بالعمل، لكنه في الحقيقة يرده بكلمة أو عبارة أو إشارة أو نظرة. فإن هذه كلها قادرة على الإساءة إلى الغير، وبالتالي يكون فيها ردًا على الشر بالشر.

وآخر لا يحاول أن ينتقم بالفعل أو بكلمة أو عبارة أو إيماءة، ولكنه يحتفظ في قلبه بالحقد ضد أخيه، وفيه مرارة ضده.

وآخر ربما لا يحمل مرارة (في نفسه) ضد أخيه، لكنه إن سمع آخر يسبّه أو ينتقده أو يقلل من شأنه فإنه يبتهج لذلك، وهكذا يرد الشر بالشر في قلبه.

وآخر لا يغذى حقدًا في قلبه، ولا يبتهج بسماع كلمة تحقير لمن أساء إليه، بل قد يتألم لشتمه، ولكنه لا يفرح بنجاحه – مثال ذلك: يتضايق إذا مدحه آخر أو أعطاه كرامة. هذا أيضًا نوع من الحقد، ولو أنه أقلّهم خطورة.

٥٥

نسيان خطأ الغير مؤقتًا

ويحدث أحيانًا أنه إن أساء أحد إلى آخر، فإنهما ينحنيان الواحد للآخر ويصطلحان. وهكذا يعيش كل منهما في سلام مع من أساء إليه ولا تكون في قلبه أفكار ضده. ولكن يحدث بعد مضى بعض الوقت أن يقول هذا المسيء شيئًا ضارًا بأخيه. فيبدأ الآخر يتذكر له الإساءة الأولى، فلا يضطرب بسبب الإساءة الثانية فقط بل وبسبب الأولى أيضًا.

مثل هذا الإنسان يشبه شخصًا قد غطى جرحه بقطعة من (اللزقة). ومع أن الجرح قد التأم، لكن موضعه لازال حساسًا. ولذلك إن رمى أحد حجرًا عليه فإن هذا الموضع يكون أكثر أعضاء الجسد تعرضًا

للإيذاء، وللحال يبدأ يدمى... هذا يعنى أن الجرح قد غُطى، ولكنه لم يُشف بالتمام. إنه لا يزال هناك أثر للحقد، بسببه ينفتح الجرح بسهولة إذا ارتطم بأقل شيء.

٥٦

بالصلاة والحب والتواضع ننتزع الحقد الداخلي

يجب علينا أن نحاول تنظيف العفونة الداخلية تنظيفًا تامًا، لكي ما يشفي جيدًا المكان الحساس دون أن يبقى لها أثر، بحيث يستحيل أن نقول بأنه كان فيه جرح قبلاً، ولكن كيف نحصل على هذا؟!

نحصل عليه بالصلاة من كل القلب من أجل المسيء، قائلين: "أعنْ يا رب آخي، وأعنى من أجل صلواته". فإذ يصلى الإنسان هكذا مظهرًا حنوًا وحبًا، وسؤاله العون من أجل صلوات أخيه تتواضع نفسه. حيث يكون الحنو والحب والتواضع، كيف يمكن أن يجد التهيج أو الحقد أو أي ألم آخر موضعًا؟

قال الأب زوسيما: "**لو أن إبليس أثار جميع مكائد شره وكل شياطينه، فانه بواسطة التواضع تنهار جميع شروره الخبيثة وتتحطم، وذلك حسب وصية المسيح**". وناسك آخر قال: "**من يصلي من أجل عدوه، لا يكون عنده حقد**".

٥٧

تعلم بالعمل والاختبار

نفذ وصية النساك عمليًا فستنال فهمًا حقيقيًا لما يقولونه. أما إذا أهملت في التنفيذ، فإنه يستحيل عليك أن تتعلم من الكلام وحده عمل الجهاد الروحي.

أي إنسان يريد أن يتعلم فنًا، هل يقدر أن يتقنه لمجرد (سماعه) عن الفن؟ لا، بل عليه أولاً أن يعمل ويفسد ما يعمله، ثم يعمل ويخسر ما يعمله، وهكذا شيئًا فشيئًا، بالتدريب والعمل، يتعلم الفن بمعونة الله، الذي يلاحظ عمله ونيته.

أما نحن فنريد أن نتعلم فن الفنون، بالكلام المجرد، دون أن نعمل، وهذا مستحيل!! لذلك ليتنا نتيقظ لأنفسنا ونعمل بإجتهاد مادام يوجد وقت.

٥٨

احذر الكذب

يجب على كل أحدٍ أن يعطى اهتمامًا عظيمًا لئلا يسلبه "الكذب"، لأن **الكذاب لا يتحد مع الله.**

الكذاب غريب عن الله. ويقول الكتاب المقدس بأن الكذاب هو من الشيطان إذ هو "كذاب وأبو الكذاب" (يو ٨:٤٤).

هكذا دعي الشيطان أبو الكذاب، أما الحق فهو الله، إذ يقول بنفسه: "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤:٦).

أما ترون إذن كيف أننا نصير غرباء عن الله بالكذب وبمن نتحد **(عن طريقه)؟!** لذلك إن أردنا بحق أن نخلص، يلزمنا أن نحب الحق بكل قوتنا وكل غيرتنا، ونحرس أنفسنا من كل كذب، حتى لا يفصلنا عن الحق والحياة.

٥٩

أنواع الكذب

يوجد ثلاثة أصناف من الكذب:

١. إنسان يكذب بالفكر،

٢. وآخر يكذب بالكلام،

٣. وثالث يكذب بسلوكه ذاته.

يكذب الإنسان بالفكر، إن كان يحسب شكوكه حقائق، فتكون له شكوك فارغة من جهة قريبه. مثال ذلك عندما يرى اثنين يتحادثان ويتجاذبان الحديث يفكر قائلاً: "إنهما يتحدثان عنى"، وهكذا. مثل هذا الإنسان يكذب بفكره، لأن كل ما يقوله له ليس بحق، إنما من وحي أفكاره، وهذا يقوده إلى النطق بشر والتعلل بسيرة الناس والعداوة معهم وإدانتهم.

يكذب الإنسان بالكلام، وذلك مثلما يكون متكاسلاً جدًا عن أن ينهض للشر، فلا يقول "اغفر لي فأني كنت متكاسلاً جدًا عن القيام"، بل يقول "عدى حمى، كنت مريضًا"، ويخترع عشرات الكلمات الكاذبة حتى لا ينحني أو يتواضع. وبنفس الطريقة عندما يريد شيئًا، فإنه لا يقول بصراحة إنه يريد هذا الشيء، بل يلف ويدور في أحاديثه مدعيًا الفقر والمرض، ويكذب حتى ينال مرامه. وينتهي الناس إلى عدم تصديق مثل هذا الإنسان حتى إن نطق بالحق.

يكذب الإنسان بسلوكه، إن كان مثلاً زانيًا ويتظاهر بالعفة، بخيلاً ويتظاهر بالرحمة، أو متكبرًا ويتظاهر بالتواضع.

٦٠

احرص على وقتك

ليتنا نهتم بأنفسنا بعناية، لأنه من يعيد إلينا هذا الوقت إن أضعناه؟ حتمًا إنه سيأتي الوقت الذي فيه نطلب أن نجد هذه الأيام ولا نجدها. لقد اعتاد الأب أرسانيوس أن يكرر قوله لنفسه: "**يا أرسانيوس انظر لماذا تركت العالم؟!**"

٦١

إن أردنا أن نقوم ولو بمجهودات قليلة، فإننا لا نعاني من ضيق عظيم... لأنه أن حث الإنسان نفسه على الجهاد واستمر في ذلك، فإنه يتقدم شيئًا فشيئًا، وأخيرًا يمارس الفضائل بهدوء، لأنه إذ يرى الله الإنسان يحث نفسه على الجهاد، يرسل له عونًا.

هكذا ليتنا نحث أنفسنا (على الجهاد)، فإننا وإن لم نكن قد بلغنا الكمال إلا أننا بالجهاد ننال عونًا (إلهيًا)، وبهذا العون نحصل على كل صنوف الفضائل.

لهذا قال أحد الآباء: "**ابذل دمًا تنال روحًا** (روحيات)" أي جاهد فسُيعطى لك ممارسة الفضيلة.

٦٢

الطريق الوسطى... طريق ملوكي

كما أن الذي يرغب في تعليم حرفة النجارة لا يمارسها بخبرة غيره، هكذا الذين يرغبون في أن يتعلموا الأعمال الروحية – إن أرادوا أن يقتنوها فعلاً – لا يهتمون بشيء آخر غير أن يجاهدوا ليلاً ونهارًا. ومع ذلك يلزمهم أن يكون لهم قدر معين في كل الأمور (أي لا يهمل الأمور الأخرى إهمالاً تامًا... بل يصنع كل شيء في حدود معينة بلا مغالاة).

قال ناسك: "**اسلك الطريق الملكي واحسب طوله... لأن الفضائل توجد في الوسط بين المغالاة في الزيادة أو النقص**". لذلك يقول الكتاب المقدس: "لا تزيغوا يمينًا ولا يسارًا" تث ٥:٣٢،١٧:١١.

٦٣

لا وجود للشر في ذاته

ليس للشر وجود في ذاته، لأنه ليس من ضمن المخلوقات وليس له مادة. إنما النفس بانحرافها عن الفضيلة تصير شهوانية وتلد الخطية، فتتألم حيث لا تجد لها راحة طبيعية في ذاتها.

هكذا تُنتج النفس الشر بذاتها وتعود تتألم منه.

يقول **غريغوريوس اللاهوتي**: "**تتولد النار عن مادة، وهي تحرق المادة، هكذا يُفسد الشر الإنسان الشرير**".

٦٤

نرى الأمر عينه في الأمراض الجسدية، إن سلك إنسانًا في حياته بغير نظام ولا يهتم بصحته، فإن هذا يُنتج مغالاة أو نقص في أمر ما يخص جسده، مما يسبب المرض. ولكن لم يكن يوجد المرض من قبل... وعندماُ يشفي الجسد لا يعود للمرض أي وجود بالمرة.

٨١

يجب على الإنسان أن يقتلع لا الشهوات فحسب بل وأسبابها ويُسمد حاله بسماد التوبة والحزن، عندئذٍ فقط يبدأ يلقى البذار الحسنة، أي الأعمال الصالحة.

فكما إنه في الحقل بعد تنظيفه وتسميدهُ تلقى البذور، حتى إذ ما نبت العشب يجد التربة لينة وهشة بكونها قد تنقت، فيتعمق الجذر فيها. هكذا أيضًا في الإنسان، إن كان قد تاب غن أفعاله القديمة وأصلح طرقه ولم يجاهد لينال الفضائل، عندئذٍ يتحقق فيه قول الإنجيل عن الروح النجس الذي عاد إلى بيته مرة أخرى فوجده مكنوسًا ومزينًا فأخذ معه سبعة أرواح أخرى، وتصير أواخر هذا الإنسان أشر من أوائله (مت ١٢:٤٣-٤٥).

٨٢

لا نقف عند الجانب السلبي

كل إنسان يرغب في أن يخلص يلزمه ليس فقط أن يبتعد عن صنع الشر بل ويصنع الخير، كما قيل: "حدْ عن الشر واصنع الخير" مز ٣٤:١٤.

فلو سقط إنسان في الغضب يلزمه ليس فقط أن يكف عن الغضب بل ويطلب الوداعة. وإن كان متكبرًا يجب عليه ألا يكون متكبرًا فحسب بل ويصير متواضعًا أيضًا.

فكل رذيلة لها ما يضادها من الفضائل:

الكبرياء – التواضع؛

القسوة – الحب المترفق؛

الزنا – العفة؛

القلب الخائر – الاحتمال؛

الغضب – الوداعة؛

الكراهية – الحب.

٨٧

بإرادتنا نُسلم أنفسنا للخطية!

يلزمنا ألا نضطرب حتى عندما تضايقنا الشهوة. لماذا تتعجب أيها الإنسان الشهواني؟ ولماذا تضطرب عندما تثيرك شهوة ما؟ أنت الذي جبلتها (صوَّرتها) ووافقت أن تحفظها في داخلك ومع هذا تضطرب؟! لقد قبلت علاماتها ومع ذلك تقول: لماذا تقلقني الشهوة؟ فإنه خير لك أن تحتمل وتجاهد وتصلى إلى الله لكي يعينك، لأنه من المستحيل على إنسان أن يطيع الشهوات ولا يعانى من هجومها المؤلم. وكما يقول الأب صيصوي: "**آنيتها في داخلك، رد لها ما لها (فيك) وهي تتركك**". فطالما نحن نحبها ونخرج بها إلى حيز التنفيذ، فإنه من المستحيل علينا ألا ننجذب إلى الأفكار الشهوانية التي تثيرنا – ولو بغير إرادتنا– لكي نطيعها، لأننا بإرادتنا قد سلمنا أنفسنا بين أيديها.

٨٨

بالنسبة للإنسان الذي تهاجمه الأفكار الشهوانية، فإنه قبلما يبدأ في تنفيذها يكون لا يزال في مدينته حرًا والله يعينه. بمجرد أن يتواضع أمام الله ويحارب قليلاً يلحقه العون الإلهي ليخلصه من هجوم الأعداء.

لكن إذا لم يحارب تاركًا نفسه تتدنس، مستسلمًا للملذات الجسدية، ينسحب العون الإلهي عن النفس، فتستميلها للقيام بالفعل الشهواني، تتعبد للشهوة أرادت أو لم ترد.

٩١

المخافة الربانية

خوف الرب يحث النفس على حفظ الوصايا، وعن طريق حفظ الوصايا يُشيد منزل النفس.

إذًا ليتنا نخاف الرب ونُشيد منازل لأنفسنا، حتى نجد مأوى في الشتاء حيث المطر والرعد، لأن من لا منزل له يعانى من مخاطر عظيمة في وقت الشتاء.

٩٢

اهتم بكل الفضائل معًا

يمكننا أن نتعلم كيف نبني منزل النفس من طريقة بناء البيت العادي. فمن يبني بيتًا يقيم حوائط في الأربعة جهات معًا، ولا يهتم بجانب واحد فقط، وإلا أفسد عمله وخسر نفقاته. هكذا أيضًا بالنسبة للإنسان الذي يشيد بيتًا للنفس، فإنه لا يهتم بجانب واحد فقط من بنائه، بل يبني الكل معًا بتساوٍ وتوافقٍ. هذا ما عناه الأب يوحنا عندما قال: "**إنني أشبه إنسانًا ينال كل يوم قليلاً من كل فضيلة. ولا أصنع مثل الآخرين الذين يمسكون بفضيلة واحدة ويبقون فيها متدربين عليها وحدها ولا يهتمون بغيرها**".

٩٣

الصبر والشجاعة رباطا الفضائل

يُبنى بيت النفس بتساوٍ وباتفاق كما يلي:

أولاً: يجب على الإنسان أن **يضع أساس الإيمان**، إذ "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" عب ٦:١١. عندئذٍ يشيد المنزل فوق الأساس بطريقة متناسقة، بمعنى أنه متى سنحت فرصة الطاعة يضع الإنسان حجر الطاعة، وإن جاءه من يسئ إليه يضع حجر ضبط النفس، وهكذا **يضع حجرًا من كل فضيلة**، فإذ تسنح الفرص يقوم البناء بهذه الطريقة في كل الجوانب، واضعًا تارة حجر حنو، وأخرى حجر قطع للإرادة، وحجر للطاعة الخ. إلا أنه يلزمنا أن نعطى اهتمامًا للصبر والشجاعة، فإنهما حجرا زاوية يربطان البناء والحوائط مع بعضها البعض. فبدونهما لا يقدر أحد أن يكمل فضيلة واحدة. فقد قيل "بصبركم اقتنوا أنفسكم" لو ١٩:٢١.

٩٤

التواضع يسند الفضائل

يضع الإنسان عند بنائه بيتًا طينًا (مونة) فوق كل حجر، لأنه لو وضع حجرًا على حجرٍ دون أن يضع بينهما طينًا فستسقط الحجارة وينهدم البيت. الطين (في بناء النفس) هو التواضع، مادام مأخوذًا من الأرض وتحت أقدام الكل. و**أية فضيلة تمارس بدون تواضع ليست بفضيلة**. هذا أيضًا ما قاله الآباء: "**كما أن السفينة لا يمكن أن تشيد بدون مسامير هكذا لا يخلص إنسان بدون تواضع**".

والبيت العادي له سقف. **وسقف النفس هو الحب الذي هو كمال الفضائل**، وذلك كما أن سقف البيت هو كماله.

ويحاط السقف بحائط (سور)، كما تقول الشريعة (تث ٨:٢٢) حتى لا يسقط الأطفال منه. وأسوار بيت النفس (التي فوق السقف) هي السهر واليقظة والصلاة، والأطفال هم الأفكار التي تقطن في النفس ويحميها السهر والصلاة.

٩٥

المهارة في البناء

أمر آخر يتطلبه هذا البناء وهو أن يكون البناء ماهرًا، وإلا قام ببناء حائطٍ مائلٍ، فينهدم البيت بعد أيام قليلة. ويكون الإنسان عاقلاً إن كان ينفذ الفضائل بتعقل. فإن حدث ان إنسانًا قام بالعمل في الفضائل بدون تعقل فإنه يفسد عمله أو يصطدم معها (الفضائل) دائمًا. وهكذا لا يقدر أن يقدم بناء كاملاً بل بينما يبنى إذا به يهدم.

٩٦

احذر الزهو

وإليك مثل واحد من أمثلة متعددة. إذا صام إنسان بزهوٍ أو بالتفكير أنه قد تمم أمرًا فاضلاً خاصًا، حاسبًا في نفسه شيئًا عظيمًا، هذا يصوم بغباء ويبدأ يدين أخاه. هذا بالتأكيد ليس فقط بينما يبنى حجرًا يهدم إثنين، بل يلحق به خطر هدم كل الحائط بإدانته لأخيه.

إما الإنسان الذي يصوم بحكمة، فإنه لا يفكر أنه يصنع شيئًا صالحًا خاصًا، ولا يود أن يمدحه الغير على صومه. إنما يفكر أنه بالنسك ينال العفة، وهكذا يصل إلى التواضع، وكما يقول الآباء: "الطريق إلى التواضع هو الأعمال الجسدية عندما تنفذها بتعقل". فيكون مثل البناء الماهر القادر على تشييد بيته تشييدًا راسخًا.

٩٧

تشجع ولا تيأس!

لا تخدعك الأفكار بأن الفضيلة فوق طاقتك ومستحيلة بالنسبة لك، بل عندما يوحي إليك الإيمان ابدأ بشجاعةُ مظهرًا إرادتك الحسنة وجهادك أمام الله، فسترى العون الذي يرسله لك لممارسة الفضيلة.

تصور سُلّمين، أحدهما يصعد إلى السماء، والآخر يهبط إلى الهاوية، وأنت واقف بين الاثنين. لا تقل: "كيف أقدر أن أصعد من الأرض وأرتفع فجأة إلى السماء، أي إلى قمة السلم"، إنما ليكن جل اهتمامك ألا تنزل إلى أسفل بكفك عن الشر. هكذا اصعد، جاهدًا أن تصعد قليلاً قليلاً بصنعك الخير المُقدم (لك). فكل عمل هو صعود درجة. وهكذا بعون الله تصعد من درجة إلى أخرى وفي النهاية تصل إلى قمة السلم.

٩٨

اسألوا... اطلبوا... اقرعوا

إن طلبنا نجد، وإن سألنا نأخذ، فقد جاء في الإنجيل: "اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم" مت ٧:٧.

لقد قيل: "اسألوا"، أي نطلب من الله بالصلاة حتى يعيننا. "اطلبوا" تعنى أنه بتعلمنا عن مصدر الفضيلة وكيفية نوالها نجاهد طالبين إياها. أما "اقرعوا" فتعنى ممارسة الوصايا. لأن من يقرع يستخدم يداه. واليدان يعينان العمل.

هكذا يلزمنا لا أن نسأل فقط بل ونطلب ونعمل مجاهدين، كقول الرسول: "تزدادون في كل عمل صالح" ٢ كو ٨:٩ (راجع ٢ تي ١٧:٣)، بمعنى أن نكون مستعدين بالكامل لتنفيذ إرادة الله كما يريد هو وكما يُسر.

٩٩

إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة

أوصانا الرسول "لتختبر ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة" رو ١٢:٢، أي نعمل طبقًا لإرادة الله.

ما هي إرادة الله **الصالحة؟** هي أن يحب كل منا الآخرين، فيكون لنا حنو ورحمة...

وما هي إرادة الله **المرضيّة؟** قد يحدث على سبيل المثال أن يجد إنسان يتيمة فقيرة حسنة الصورة، فيُسر بجمالها، لهذا يأخذها ويربيها لا بسبب فقرها بل من أجل جمالها. هذه إرادة الله الصالحة لكنها غير مرضية. **قدم عمل الرحمة ليس من أجل دافع بشرى، بل من أجل الله الذي أمر بها، من أجل ذاته، من أجل الشفقة ذاتها...**

أخيرًا إرادة الله **الكاملة**، وذلك بأن يصنع الإنسان الرحمة بدون تذمر ولا تراخٍ ولا غرور، بل يقدمه بكل قوته وكامل إرادته، مانحًا الرحمة كما استلمها، سخيًا كما أخذ بسخاء... هذه هي كيفية تحقيق إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة.

١٠٠

نوعا النهم

يوجد نوعان من النهم، واحد عندما يطلب إنسان طعامًا يُسره، ولا يريد دائمًا أن يأكل منه كثيرًا، بل يطلب أن يأكل ما يسر تذوقه. والثاني عندما يُغلب إنسان من الميل للأكل كثيرًا. إذ لا يرغب في طعامٍ معينٍ ولا يهتم بالطعم، إنما يريد أن يأكل ويأكل غير مهتمٍ ماذا يأكل بل كيف يملأ بطنه.

النوع الأول يسمى **جنون التذوق**، والثاني **جنون المعدة.**

فإن أراد إنسان أن يصوم... يلزمه أن يتجنب كلا الصنفين من النهم، فإنهما يُشبعان لا احتياجات الجسد بل الشهوة، لذلك إن انغمس إنسان فيهما، يحسبان خطية.

١٠١

صوِّم الحواس

على أي الأحوال يلزم للإنسان في الصوم ليس فقط أن يطيع هذه القاعدة من جهة الطعام فحسب بل ويمتنع عن كل خطية أخرى، حتى متى كانت المعدة صائمة، يكون اللسان أيضًا صائمًا، ممتنعًا عن الافتراء والكذب والكلام الباطل والحط من شأن الغير والغضب وكل خطية أخرى يرتكبها اللسان.

كذلك يلزم على الإنسان أن يصوِّم عينيه، فلا تنظران إلى الأمور الباطلة ولا تجولان كيفما شاءا، ولا تتطلعان إلى الغير بعدم حياء وبدون مخافة، كذلك يلزم أن يحفظ اليدين والرجلين من كل عمل شرير.

١٠٣

عندما تلتقي بالآخرين يلزمك قبل كل شيء أن تتجنب الظن الذي يقود إلى الإدانة الشريرة.

لديّ أمثلة عديدة تؤكد الحقيقة بأن كل إنسان يحكم على الآخرين حسب شخصيته الخاصة. مثال ذلك افترض أن إنسانًا كان جالسًا في موضع ما ليلاً، رأوه ثلاثة رجال سائرين، يفكر أحدهما بأنه هذا جالس ينتظر إنسانًا ليرتكب الزنا، وآخر يقول بأن لا بد وأن يكون لصًا، والثالث يفكر بأنه قد اتفق مع جارٍ له ليذهبا ويصليان معًا... هكذا رأي الثلاثة إنسانًا واحدًا في مكان واحد، لكن أفكارهم نحوه لم تكن واحدة، بل بلغ كل منهم إلى نتيجة مستقلة. ومن الواضح أن كلا منهم شكَّل الموقف حسب حالة نفسه.

فكما أن أصحاب الأجساد المريضة بمرض الصفراء، يتحول كل طعام يأكلونه إلى عصارة مضرة، حتى ولو كان الطعام صالحًا، هكذا من كانت نفسه مريضة يصيبها ضرر من كل شيء، حتى وإن التقت بأمور صالحة. الإنسان الذي نفسه سليمة يكون كمن جسده سليم إذ تتحول الأطعمة فيه إلى عصارة مفيدة، حتى ولو كان فيها بعض الأشياء المضرة. هكذا عندما تكون روحنا صالحة تستطيع أن تستفيد من كل شيء حتى ولو كان الشيء غير مفيد.

١٠٦

ادرس حالك بروح الصلاة

إن كنت تريد أن تكون للأفكار المقدسة بالإيمان عمل هادئ وقت الضرورة لمقاومة الحركات والأفكار والمشاعر الشريرة، ادرسها جيدًا فغالبًا ما تتغلب عليها في عقلك، وأنا لي إيمان في الله أنك ستجد سلامًا.

كذلك **ادمج صلاتك بالدارسة**. حاول أن تتقدم في هذا حتى تقدر أن تحتمل لحظة الألم الجسدي أو الروحي بدون حزن ولا ضيق بل بصبر.

١٠٩

تعرف على أفكارك

اعلم أن الإنسان الذي لا يعرف الفكر الذي يحاربه أو يحزنه إنما يقوّي الفكر ضد نفسه... ولكنه إن عرفه يبدأ يحاربه ويقاومه ويصده، فتضعف الشهوة ولا يكون للفكر قوة لمحاربته أو جعله حزينًا. وأخيرًا شيئًا فشيئًا يغلب الشهوة ذاتها بالجهاد ونوال عون إلهي.

١١١

عندما تكون النفس جامدة تفيدها مداومة قراءة الكتاب المقدس وأقوال الآباء القديسين الحافزة للقلب، وتذكر دينونة الله الرهيبة ورحيل النفس عن الجسد ولقائها مع قوات الظلمة المخيفة تلك التي صنعت معها الشر خلال فترة الحياة القصيرة المؤلمة.

+++

بركة هؤلاء الآباء القديسين تكون معنا. آمين.

أبوفثجماتا ١٩.
إرادة ذاتية ٣٤، ٥٦، ٦٦، ٦٧، ٧٣، ١٨٠، ١٨١، ١٩١ (انظر مشورة).
أرضيات ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٩، ١٤٠.
اقوال الآباء ٢١٢
الأنا (الذات) ٢٦، ٥٦.
إيمان ١٠٠، ١١٢، ١١٤، ١٦٠.

بر ١٤٤، ١٥٨.
بصيرة (انظر استنارة النفس).

تأمل ٢٧، ١٤٠، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٩.
توبة ٥١، ٨٦، ١٢١.

مثابرة (انظر جهاد).

الجحيم ١٥٠.
جسد ٣٣، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٨، ٨٠، ١١٣، ١١٦، ١٣٩، ١٤٦.
جهاد ٢٧، ٢٩، ٣٦، ٥١، ٥٧، ٧٤، ٨٤، ٨٥، ٩٥، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٢٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٤١، ١٥٩، ١٨٠، ١٨٨، ٢٠٣، ٢٠٩.
جهل ٤٤، ١٠٣، ١٥٠، ١٦١.

حب ١٣٤، ١٤٢، ١٤٤، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ٢٠١. حب للمال ١٥٣، ١٦٣.
حب للغير ١٥٧، ١٦٠، ١٩٥.
حرية ٢٥، ٣٥، ٤٥، ٧٨، ٨٦، ١١١، ١١٢، ١١٤، (حرية الإرادة) ١١٨، ١٥٢، ٢٠٦.
حزن ١١٩.
حكمة ١٤٤.
احتمال الغير ١٩٥.
حياة داخلية ١٠٧، ١١٨.

خطية ١٧٧.
مخافة الرب ٦٠، ١٤٢، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٦، ٢٠٦.
خيمة الاجتماع ٩٧.

تدقيق في الوقت ٢٠٣.
إدانة ٢٧، ٣٧، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢١١. دينونة ١١٨.

ذكر الله ١٠٢، ١٠٧، ١٥٧.
ذهن (انظر عقل).

رجاء ١٦٠، ٢٩.
الروح القدس ٥١، ٥٢، ٨٠.

تجربة (انظر ضيقة) ١٣١، ١٤١، ١٥١، ١٦١.
تذمر ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٦١، ١٦٣.

بر ذاتي ١١١ الخ.
بنوة ٣٠، ١١٢، ١١٥.

اسم يسوع ١٥٧.
آلام النفس ١٣٧.
إيجابية الحياة ٢٠٥.

حب لله ١٩٥.
احتقار الغير ١٩٤.
أحلام ١٥٤.
حواس ٢١٠، ٤٦، ٥٤، ٩٨، ١١٨.

خلود ٤٤.

دموع ١٠١.
دينونة ١١٨.

ذم (انظر مديح).

إرضاء الناس ٩٣، ١٥٧.
رؤية الله ٤٩.

زنا ١٥٣، ١٦٣.

سبت ٩٨، ١٢٠.
سماء ٤٢.
سماويات ٣٠، ٣٣، ٣٩، ٤١، ٦٤، ٨٢، ١٤٥.
سهر ٥٧، ١٠١، ١١٦، ١٣٨.

شجاعة ١٤٤، ١٥٨، ٢٠٧.
شكر ١٣٤.
شهوات ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٩، ٤٨، ٦٢، ٧٥، ٨٥، ٩٧، ١٠٨، ١٢١، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٣، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٧، ١٧٩، ٢٠٥.
شياطين ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٨٣، ١١٩، ١٢٠، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٣، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٨.
مشورة ١٥٠، ١٩١.

صبر ١٤٤، ١٦٠، ٢٠٧.
صداقة ٢٤، ٣٨.
صغائر ٢٣، ١٩٢.
صلاة ٢٧، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠٠، ١٠١، ١١٠، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٤٠، ١٤١، ١٤٧، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١، ١٦٥، ١٨٤، ١٩٦، ٢٠١.
صلاح (انظر: فضيلة).
صليب ١١٥، ١٧٩، ١٨٠.
صمت ٢٨، ٤١، ٦٣، ٩٧، ١١٦.
صوم ١٣٤، ١٣٩، ٢١٠.

ضجر ١٣٦، ١٥٤، ١٦١.
ضمير ١٠٩، ١١٠، ١١٨، ١٨٥، ١٨٦.
ضيق ٢٠٤.

طاعة ٢١، ١١٣، ١٧٨.
الطبيعة ١٩.
طول الأناة ١١٦

اعتدال (مبالغة) ٢٣، ١٣٨، ٢٠٤.
عدو نفسه ١١٩.
عذوبة سماوية ٦١.
معرفة (عدم معرفة) ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٣، ٤٤، ٧٥، ٧٦، ١٠٦، ١١٢، ١١٣، ١١٩، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٥، ١٥٠، ١٦١، ١٦٢.
معرفة النفس ٤٠.
اعتراف ١٢٠، ١٢١.
عطاء ١٢٠.
عفة ١٤٤.
عقل (ذهن) ١٦، ٢٤، ٣٣، ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٣، ٨١، ١٠٩، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٨.
عقلاء (حكماء) ٢١، ٢٣، ٢٤.
تعقل ٢٥، ٢٦-٣٣، ١٤٤.
عماد ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ١١٨.
عمل ١١٣، ١١٤، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦ الخ، ٢٠١، ٢٠٢.
العنايهة الإلهية ٤٩.

غربة ٣٦.
غضب ١٣٥، ١٣٨، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٣، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١.
غفران للغير ١١٧.
غرور ٢٦.
غنى ٢٢، ٢٨، ٣٣، ٣٤، ٤٠.

فرح ١١٨.
فضيلة ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤٦، ٤٨، ٩٣، ٩٦، ١٠٠، ١٠٤، ١١٠، ١١٣، ١١٥،١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ٢٠٧، ٢٠٨.
فكر ١٢٨، ١٣٠، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٩١، ٢٠٦، ٢١٢.
فهم (انظر تمييز).
تفاصيل (الخطايا) ١٢٠.
فيلوكاليا ٩ الخ.، ١٥.

قرابة ٣٠.
قسوة القلب ١٠٢.

كبرياء ١٥١، ١٧١، ١٧٨، ١٩٣، ٢٠٨، ١٥٥، ١٦٣.
كذب ٢٠٢، ٢٠٣.
كلمة الله ١٥٩، ٢١٢.
الكلام والجدال ٢٨، ٣٠، ٣٧، ٤١.

لاهوتي ١٦، ١٦٢.
لاهوى (غير شهوانيين) ١٣٩، ١٤٠،١٤٢، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٠، ١٧٢،١٦١

مجد ٢٨، ٢٩.
مديح ٣٨.
المسيحية ١٣٣.
ملكوت السماوات ١١٢، ١٣٣.
تمييز ١٤١، ١٤٣، ١٥٨.
مجد باطل ١٣٦، ١٤٨، ١٥٥، ١٦٣.
مرض ٣٥.
ملاك ١٣٥، ١٤٣، ١٥٦.
موت ١٣١، ١٤٦.

نار إلهية ٥٧، ٦٤، ٦٥.
الناموس الطبيعي ١٨٥.
نسك ١٣٨.
النفس ١٤٣، ١٥٨.
نمو ٦٢، ١٤٣.
استنارة النفس ٢٨ ،٣٢، ٤٤، ٤٦، ٦٢.
ناموس روحي ٩٩.
نعمة ١٠٤، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٥٩.
نصرة ٣٦.
نقاوة ٦٨، ١١٤، ١٥١.
نهم ١٥٢، ١٥٣، ١٦٣، ٢١٠.
نية ١١٣.

اهتمام بالغد ١٢٣.
هدوء النفس ١٤٨ .
إهمال وتهاون ٨٨، ٨٩، ١١٣، ١١٨، ١٨٦.
هدف ١٠٢.
هزل ١٩٠.

وحدة ١٩، ١٣٩، ١٦٠، ١٩٧.
وصية ١٤١، ١٢٢،١٦١، ١٤٢، ١٧٩.
تواضع ٥٩، ١٠٠، ١٠١، ١١٦، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٠١، ٢٠٧.
ورع (انظر فضيلة).

مواهب روحية ١٠٠.

يسوع المسيح ٢٤، ٨١، ١١٤، ١١٥، ١٤٥.